القاضي الفاضل

عبد الرحيم البيسـاني

هادية راغب الدجاني

رسالة قدمت الى الدائرة العربية في الجامعة الأميركية

في بيروت للحصول على درجة "استاذ علوم"

بـــيروت
الجامعة الأميركـية
تشـرين الأول ١٩٦١

تمهـــــيد

١ـ مقـدمة

عاصر فترة ملأى بالاضطرابات السياسية ـ ومتسمة بالحروب الطاحنة بين العرب والفرنج ـ وبالانقلابات الجذرية الهامة في تاريـــخ المسلمين . عاشها وأسهم فيها وأحياها الى حد بعيد . ذلك هو القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين الأيوبي الذى شاهد اندثار الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحد مصر والشام ، واستعادة البلاد المقدسة من أيدى الفرنج بعد احتلالهم الطويل لها .

ظهر على مسرح هذه الفترة ولعب دورا فيها بلسانه وقلمه ، حفظه له المؤرخون الأقدمون وقدروه له ، وأغفله المحدثون الذين خصوه بترجمات موجزة لاظهار اهميته الأدبية في الأغلب ـ ولم يخصه أحدهم ببحث خاص يضعه فيه حيث يجب أن يوضع .

تعرفت الى القاضي الفاضل في بادئ أمرى كمنشئ صاحب طريقة خاصة في الكتابة قوامها البديع ، ثم ازدادت معرفتي به من خلال دراستي التاريخية لعصر صلاح الدين حيث اطلعت على بعض رسائله المحفوظة في كتاب " الروضتين " لأبي شامة ، وعلى شئ يسير من سيرته شعرت على أثرها بالكثير من التشابه بين ظرفه كفلسطيني اضطر ان يقضي القسم الأكبر من حياته خارج بلاده ، لاحتلال الفرنج لها ، وظرفي الحاضر كفلسطينية أعيش خارج بلادى لاحتلال اليهود لها ، وأحسست بشئ من الرغبة يدفعني الى التزيد من معرفة تاريخ فلسطين والبلاد العربية اثناء عهد صلاح الدين ، ورأيت في القاضي الفاضل

خير ممثل لها ، لذلك فضلت اختياره موضوعا لرسالتي هذه مدفوعة بعامل آخر هام ، هو عدم وجود بحث مستقل عنه .

فآمل أن أوفيه حقه في هذا البحث وأضعه في مكانته اللائقة به .

٢- تقييم المصادر والمراجع الباحثة في القاضي الفاضل

بإمكاننا ان نقسم المصادر والمراجع ذات العلاقة المباشرة بالقاضي الفاضل بالنسبة لأهميتها الى ثلاثة أقسام :

(١) رسائله ومذكراته وديوان شعره.

(٢) كتب التاريخ والأدب القديمة التي تحدثت عنه

(٣) المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسته .

١- رسائل القاضي الفاضل وديوان شعره

أ - رسائله

توجد رسائل القاضي الفاضل في شكلين ، احدهما مخطوط ، لم تجر محاولات لنشره حتى الآن . والآخر موزع في بعض كتب التاريخ والأدب

اما المخطوط من رسائله ، فقد تمكنت بمعاونة مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت من الحصول على أربع مجموعات منها ، مصورة عن مخطوطات بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، اطلعت عليها وحاولت أن استعين بالمادة الموجودة فيها قدر الامكان لدراسة حياته وشخصيته وأدبه . وقد تفاوتت مجموعات هذه المخطوطات بين رسائل اخوانية وديوانية ، ووردت فيها رسائل عديدة مشتركة ، الا ان كلا منها تفردت بناحية من النواحي سواء من حيث الرسائل ونسبتها او من حيث القاء ضوء على القاضي الفاضل وعصره .

اما اكثر المخطوطات علاقة بالقاضي الفاضل نفسه فمخطوط :

(١) الفاضل من كلام الفاضل : وهو مخطوط مصور ، جمع فيه جمال الدين ابن نباته (ت ٧٨٦ هـ) مجموعة من رسائل وأقوال القاضي الفاضل ، ومقتطفات عديدة من بعض رسائله طغت بكثرتها على عدد رسائله التامة في هذا المخطوط .

وقد تفرد هذا المخطوط بايراد اكبر عدد من المقتطفات من رسائل الفاضل التي تلقي ضوءًا على حياته ، خاصة فيما يختص بصحته ومقدرته الجسمانية بوجه عام ، والأمراض التي كانت تنتابه بين آن وآخر حتى وفاته .

المتأزم في البلاد زمن صلاح الدين لكثرة ما ورد فيها من رسائل الشفاعات والتذمر من الحالة الاقتصادية المضعضعة اثناء حكم العزيز عثمان •

(٣) من ترسل القاضي الفاضل

مخطوط مصور بخط موفق الدين الديباجي ، احد كتاب الانشاء زمن الملك الكامل بن أيوب • تقع اهميته بالاغلب في الناحية التاريخية ، ويتفرد بايراد ثلاثة رسائل تاريخية هامة تصف احداها الموقف بين صلاح الدين والفرنج بسوريا ، وتتحدث الثانية ، وهي مرسلة الى الديوان ببغداد عن فتوحات السلطان ، والثورات الداخلية التي سببها بعض الشيعة ، والسودان ، ووقعة دمياط • كما تبحث الثالثة في فتح عسقلان •

(٤) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم

وصلتنا نسختان عن هذا المخطوط ، نسخ احداهما محيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٨١ هـ) ، ونسخ الاخرى شخص مجهول يبدو انه نقلها عن نسخة ابن عبد الظاهر لتشابه الكلمات والاخطاء • وأدخل خلالها كتبا أخرى في موضوعات مختلفة لا علاقة لها بالقاضي الفاضل •

أهم ما في المخطوطين ، رسالتان تاريخيتان لم تردا في غيرهما من المخطوطات ، احداهما الى بني جعفر وطلحة ، بعض العشائر المتخلفة عن حرب الفرنج في مصر زمن الوزير شاور ، والاخرى الى ابن قاضي عكا ، يوصيه فيها بما يعتمد عليه في رسالته الى ملك الروم . وقد كشفت الاولى عن علاقة المصريين بالفرنج في تلك الفترة ، وانشقاق المصريين فيما بينهم . كما كشفت الثانية عن علاقة المسلمين بالجنويين وبحاكم القسطنطينية .

اما رسائله الموزعة بين كتب التاريخ والادب ، فقسم كبير منها مشترك بين هذه المصادر والمخطوطات ، كما ان قسما منها يساعدنا على التعرف اليه ، الا ان علاقتها في الاغلب بتاريخ العصر ، وأدبه ، وهي كغيرها من رسائله المخطوطة المساعد الاول في دراسة اسلوب القاضي الفاضل .

ب — شعر القاضي الفاضل

قام الدكتور احمد بدوي مؤخرا بتحقيق الجزء الاول من ديوان القاضي الفاضل ونشره . وقد أفادنا في ذلك بأن عرّفنا الى قسم كبير من شعر القاضي الفاضل لم يكن من السهل العثور عليه . وأعاننا على اقامة دراسة لشعره . وقد اعتمد بعض المصادر التاريخية والادبية لاعانته في تحقيق الديوان ، وأغفل بعض المصادر التي تحتوي شعرا للفاضل ، امثال مطالع البدور للغزولي ،

والغيث للصفدى ، والاعلاق الخطيرة لابن شداد . وبعض الابيات العديدة الوارده ضمن بعض رسائل القاضي الفاضل . وكان يخطئ في نقل الكلمات الصحيحة في بعض المواضع ، فينقلها مصحفة دون ان يصححها في الهامش . كما كان يخطئ في نسبة أبيات لأصحابها الحقيقيين في الهوامش ، كأن يذكر ابياتا من الشعر على انها للمتنبي ، مثلا ، وهي في الحقيقة لابي نواس .

وشعر القاضي الفاضل على العموم لا يلقي كثير ضوء على حياة القاضي الفاضل لولا ابيات عديدة وصف فيها حاله في أول امره بالكتابة وطموحه . وأبيات أخرى مدح فيها الصالح بن رزيك لاعلاء منزلته . وما عداه فتكشف عن علاقته بحكام عصره .

٢ — كتب التاريخ والادب القديمة التي تحدثت عن القاضي الفاضل

تمكنت من الرجوع الى عدد كبير من مصادر التاريخ والادب المنشورة الباحثة في العهدين الفاطمي والايوبي . وحاولت ان استفيد منها قدر الامكان في سيرة القاضي الفاضل ومكانته الاجتماعية والسياسية والادبية ، وفي التعرف الى رسائله واشعاره المبعثرة في ثنايا بعضها . وقد لاحظت اشتراك بعضها في كثير من الروايات عنه ، الا انها تفاوتت بأهميتها بالنسبة للقاضي الفاضل . لذلك سأكتفي هنا بذكر أهم المصادر الباحثة في القاضي الفاضل ، تاركة الباقي لفهرس المصادر .

أ – كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، لشهاب الدين
ابي شامة (ت ٦٦٥ هـ) .

يعد من افضل المصادر التاريخية لدراسة القاضي الفاضل ، فمؤلفه يتلقط اخبار الفاضل ويتحدث عنه باسهاب ، ويحاول في مواقف عديدة ابراز اهميته في عصره ، وكما ويكثر من ذكره خاصة في الجزء الثاني من تاريخه . كما انه يعتمد رسائل القاضي الفاضل الى حد بعيد كمصدر له في تاريخه . وقد حفظ له بذلك عددا كبيرا من رسائله التاريخية .

ب – وفيات الاعيان لشمس الدين ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)

ترجم مؤلف الكتاب للقاضي الفاضل ترجمة مستقلة ، كما تحدث عنه خلال بحثه لسيرة بعض الاشخاص المعاصرين له ، من حكام وأدباء ، وتفرد بالتحدث عن والد القاضي الفاضل . وأورد له شيئا من رسائله ، الا انه وجه للقاضي الفاضل اتهاما خطيرا لم يوجهه له غيره من المؤرخين ، وهو انه لم يكن اصيلا في كتابته ، بل كان جل اعتماده على كتابة ابن أبي الشخباء ، احد الكتاب الفاطميين .

ج – صبح الاعشى في صناعة الانشا ، لابي العباس القلقشندى
(ت ٨٢١ هـ) .

حفظ لنا مؤلف هذا الكتاب عددا كبيرا من رسائل القاضي الفاضل الديوانية ، من سجلات وعهود ورسائل تاريخية أورد معظمها تامة ليدل بها على اساليب الكتابة الانشائية في العهد الفاطمي والأيوبي • وقد اتخذ من رسائل القاضي الفاضل نموذجا لكتابة ذلك العصر، فأصبح من المصادر الرئيسية لدراسة اسلوب الفاضل •

د ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) •

خصص فصلا للحديث عن القاضي الفاضل ومدرسته الفاضلية • وعن بعض منشآته الخيرية • كما انه تفرد من بين المصادر التي عثرت عليها بحفظ قسم من متجدداته وتعليقاته على المتجددات ، فعرفنا بذلك الى نوع جديد من أدب القاضي الفاضل وتاريخه •

ـــ ـــ ـــ

<u>٣ ـ المراجع الحديثة التي قامت بمحاولات لدراسة القاضي الفاضل</u>

رجعت الى بعض المراجع الحديثة الباحثة في سيرة القاضي الفاضل وأدبه ، امثال كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، للدكتور احمد بدوي ، و[illegible]

ودراسات في الشعر في عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين . وكتاب أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة وغيرها . كما اطلعت على مقال للدكتور كارل بروكلمان بعنوان القاضي الفاضل ، في دائرة المعارف الاسلامية ، الا انني لم استفد من هذه المراجع كثير فائدة لعثوري على المادة الموجودة فيها في مصادرها الأصلية ، لذلك فضلت استقاءها من نبعها . واكتفيت منها بما تهديني اليه بالتعرف الى مصادر كنت غافلة عنها . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر بعض الفهارس التي أشرفت على اعدادها هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في مساهمة المؤرخين العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي ، والأدب العربي ، وأخص منها فهرسين كانا رائدين لي في بحثي هذا ، أولهما الفهرس الذي أعده الدكتور قسطنطين زريق في دراسة العهد الصليبي وثانيهما ، الفهرس الذي أعده الدكتور محمد كامل حسين في دراسة الأدب الفاطمي . ولم أعتمد المصادر الغربية الباحثة في العصر الصليبي لاهتمامها بالناحية التاريخيه في الأغلب .

فهرس الموضوعات

مقدمة في دراسة عصر القاضي الفاضـل

لست أزعم اني في هذه اللمحة الموجزة أدرس عصر صلاح الدين وما قبله وما بعده ، وهو عصر ذو زوايا وجوانب متعددة ، فان دراسة عصر ما على نحو مطول في التقديم لدراسة احد رجاله أمر يعد في نظرى مستهجنا اذ هو عكس للقضية ، فبينا يجب ان تتعدد الدراسات للافراد البارزين في عصر ما ، لتكون للعصر صورة واضحة بعض الوضوح ، اذا انا نكتب المقدمات عن العصر لدراسة فرد واحد ، ولو فرضنا ان دراسة العصر أمر في مقدور الدارس ان يحققه ، لما كان هذا الموطن صالحا لها ، لما تقتضيه دراسة العصر من توسع كثير ، تصبح الى جانبه الدراسة الأصلية شذرة صغيرة .

لهذا كله لن أتعرض الا الى لمحة موجزة تصلح ان تكون اطارا توضع فيه صورة القاضي الفاضل حسبما أرسمها في الصفحات التالية .

واذا شئت التحديد قلت ان القاضي الفاضل رأى نهاية حكم وبداية حكم آخر . رأى الضعف والفساد والغزو الخارجي والتقاتل على السلطة في نهاية العصر الفاطمي ، ورأى الانتقال من هذا الوضع الى وضع جديد ، فهو ابن فترتين ، لو رسمنا لهما خطا بيانيا لكان الارتفاع في الخط متوازيا تماما في حياة العصر وحياة الأديب الذى أدرسه .

وقد كان الوضع الجديد في صبغته العامة حركة قوية تهدف لطمس الماضي وازالة آثاره ، لذلـك كانت راية الجهاد التي رفعها صلاح الـدين لا تعني توحيد القطرين المصرى والشامي فحسب ، واستغلال مواردهما البشـرية وغير البشرية في سـبيل القضاء على الصليبيين ، بل كانت تعني ايضا محاولــة لاعادة السنة والقضاء على التشيع وكانت هذه حركة هجوميه واصلاحية معا ، اعني انها استدعت شيئا من العنف في مطاردة المذهب الفاطمي ، كما استدعت نشاطا عاما في الاصلاحات الداخلية كبناء المدارس والمساجد والمستشـفيات ونشر التعليم السني على نطاق واسع ليتسنى للمذهب السني ان ينتصـر .

ويجب الا نفرد صلاح الدين بهذا الاتجاه ، فانه سار فيه متمما لما بدأه نور الدين زنكي [1] من ناحية ، فآمن مثله بضرورة تأمين الاتصال بـين مصر والشام ، وآمن مثله ايضا بمبدأ الجهاد ، وحاكاه في تحقيق العدالة ومحاولة نشرها في ارجاء البلاد ، كما يجب دائما ان نتذكر طابع الناس الذين وقفوا الى جانبه يؤيدونه في القول والعمل ، وكان اعلان الجهاد في النواحي السياسية والاصلاحية يقتضي أنموذج الرجل المتدين مثل القاضي بهاء الدين ابن شداد ، والقاضي الفاضل ، والفقيه الخبوشاني ، الذين تصل بهم نزعة التدين أحيانا حد التشدد . وفي مثل هذه البيئة برزت " شخصية " القاضي الفاضل ، واضطلعـت بالمسؤوليات الجسيمة .

---

(1) المقريزى ٢ ، ٢٦٣

على ان صلاح الدين نفسه كان " انموذجا " أعلى لمن حوله ،
فقد حرّم على نفسه ما كان لدى الخلفاء الفاطميين من مجالس الشرب والطرب
لأنه كان متقشفا تاركا للهو والشرب . (١) وتخلى عن كثير من مظاهر الترف
كالأعياد الكثيرة التي بلغت في زمن الفاطميين ثمانية وعشرين عيدا (٢) وانصرف
الى مهام الامور ، ولم تنسه واجباته الحربية الكثيرة ان يلتفت الى حال الرعية فيكثر
من نشر التعليم بانشاء المدارس الكثيرة حتى عد المقريزى منها ما يزيد على
العشرين مدرسة (٣) ، منها المدرسة الناصرية للشافعيه ، والقمحية للمالكية ،
والسيوفية للحنفيه ، وبه اقتدى الرجال العاملون حوله ، فبنى القاضي الفاضل
المدرسة الفاضلية ، وبنى الخبوشاني مدرسة بازاء مشهد الشافعي " لم يعمر
بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف
عليها انها بلد مستقل بذاته ..... والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه
الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني ، وسلطان هذه
الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتأنقا وعلينا
القيام بمؤنة ذلك كله " . (٤)

---

(١) المقريزى ٢ ، ٢٣٣

(٢) المصدر نفسه ٢ز٣٨٤

(٣) المصدر نفسه ٢، ٢٦٣ وما بعدها

(٤) ابن جبير ، ٤٨

ولعل اكثر ناحية اصلاحية لفتت صلاح الدين بعد المدارس هي الاكثار من بناء المستشفيات في كل بلد وتوظيف ما يلزم لها ، ونستشهد من ابن جبير على بعض هذه المظاهر الاصلاحية بقوله " ومما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ابرزه لهذه الفضيلة أجرا واحتسابا وعيّن قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الاشربة واقامتها على اختلاف انواعها ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيّم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الاغذية والاشربة بما يليق بهم . [1] وهذا مثل واحد من المارستانات الكثيرة بالاضافة الى ما انشاه من خانقاهات للصوفية . [2]

والحق ان المرافق العامة التي انشأها هذا السلطان لتحسين احوال الناس وتيسير التنقل على الغرباء والحجاج وما الغاه من رسوم وضرائب [3] تحتاج دراسة مستقلة تفيض عن حدود هذه المقدمة الصغيرة .

وكان لصلاح الدين مبدأ جرى عليه في حياته ، ولهذا المبدأ ثلاثة فروع :

١ـ الحلم ، فهو يفضل دائما العفو على انزال العقوبة [4]

---

(١) المصدر نفسه
(٢) المقريزى ٢ ، ٢٦٣
(٣) ابن أياس ١ ، ٧٠ ، ابن جبير ٣٧
(٤) ابوشامة ٢ ، ٢١٨

٢ـ السخاء ، وهو ايضا لا يرد طلب قاصد ، حتى انه توفى وخزانته تكاد تكون خالية من الأموال لكثرة هباته . وكان لهذا أثر في حياة الأديب [1]

٣ـ للمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وانما هو (صلاح الدين) عبد للشرع وشحنته [2]

وقد كان اجتماع هذه الخصائص في شخصه سببا في نجاح جانب كبير من حركته الاصلاحية . الا ان هذا لا يعني ان الرخاء قد عم الناس وان العدالة شملت الجميع . ولا بد ان يكون هناك فرق بين مايطلبه الحاكم وما يستطيع تحقيقه ، ولنأخذ مثلا على ذلك من مقيدات القاضي الفاضل نفسه ـ كانت الاعياد في زمن الفاطميين مسرحا لمجاوزة الحدود الأخلاقية ، فلما كان زمن الأيوبيين صدرت أوامر السلطان بالنهي عن ضروب من اللهو معينة وعن التظاهر بالمنكر ، ولكن " يقيد القاضي الفاضل في متجددات عام ٥٩٤ هـ هذه الملاحظة " ظهر في هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات ، ومن الفواحش ما خرج من الدور الى الطرقات ، وجرى الماء في الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة في الذراع السادس عشر ، فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع اصواتهن ووجوههن مكشوفة ، وحرفاؤهن من الرجال معهن

---

(١) المصدر نفسه ، ٢١٧

(٢) ابن جبير ٢٩٧ ـ ٢٩٨ " الشحنة صاحب الشرطة " ابن جبير ٢٩٨ .

في المراكب لا يمنعون عنهم الايدى ولا الابصار ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئا من اسباب الانكار " . (١) وذكر في رسالة الى صلاح الدين ان "المعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع ناشية ، وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها الا ما يستعاذ منه " (٢) وقد يحمل الاسلوب البياني الذى ينتحيه الفاضل احيانا على المبالغة ، ولكن تبقى هناك حقيقة لا قبل لنا بردها ، وهي ان هناك مظالم ومعاصي وان الفاضل لو اراد ان ينافق لسيده لاخفاها ليقول له ان عهده زاهر وان العدالة لوجوده قد عمت . غير ان القاضي الفاضل كان مخلصا وكان يعلم ان صلاح الدين حريص على ان يعرف الواقع وان يحاول اصلاح الامور ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ومثل هذا يشير الى حقيقة هامة وهي ان تفاهم الحاكم ورجاله على غاية اصلاحية - دون منافقة المرؤوسين - يهيء السبيل الى انجاح الخطة ويجعل النسبة الكبرى في جانب الخير .

وفي مثل هذا الجو من العمل الدائب على تغيير الوضع الماضي لاحلال جديد في مكانه يمكن ان تتم النتائج التالية :

---

(١) المقريزى جـ ٢ : ١٤٣

(٢) ابو شامة ٢ ، ١٦٦

١- التوفر على الدراسات الدينية من فقه وحديث وقراءات وتفسير [١]
والنفور من الدراسات الفلسفية والتحرج من المناظرات العقلية . [٢]

٢- ظهور نشاط واسع في علم الطب لسد حاجة البيمارستانات
الكثيرة . [٣]

٣- تشجيع حلقات الأدب وبخاصة الأدب الذى يؤيد التجاه الجديد [٤]

٤- استحداث رسوم جديدة في النواحي الادارية والعسكرية وغيرها . [٥]

٥- ضياع كثير من الآثار الفكرية التي تخالف في اتجاهها الحركة
الجديدة او اعدامها عمدا . [٦]

---

(١) يدل على هذا المؤلفات العديدة في هذه الموضوعات . السيوطي ١٨٩ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ياقوت ١٥ ، ٦٦ ، النعيمي ١ ، ٥٣٩ ، ابن خلكان ٢ ، ٤٧١ .

(٢) اضطهاد شهاب الدين السهروردى في هذه الفترة لاشتغاله بالفلسفة خير مثال على ذلك "ابن ابي أصيبعة" ٢ ، ١٧١

(٣) ابن ابي أصيبعة ٢ ، ٢٤٦ ، ١٣٣ وغيرها من الصفحات

(٤) يظهر هذا التغيير في اسلوب شعراء العصر .

(٥) راجع القلقشندى ٤ : ١٤ – ٣٧

(٦) ابو شامة ١ ، ٢٦٨

٦ـ تهرب الشعراء والادباء من المبالغات التي تمليها العقيدة الفاطمية الى المبالغة في الشكل والاسراف في النواحي البديعية . ولذلك قد نصف هذا العصر بشيء من الحرج في قبول الرأى المخالف في الفكر والعقيدة والاتجاه السلوكي ، والميل الى شيء من التزمت والاخذ بالتقاليد ورعاية "المظاهر".

ـ ٢ ـ

ولما كانت الرسوم الادارية لا تهمنا في فهم القاضي الفاضل ، فانا لن نوجه الاهتمام منها الا الى ديوان الانشاء ، فان فهمنا لوضعه حينئذ ذو صلة بموقف القاضي الفاضل فيه .

اصاب ديوان الانشاء زمن الايوبيين شيء من التغيير الذى اصاب غيره من النظم الفاطمية ، لكن بما ان علاقة القاضي الفاضل بالكتابة بدأت فيه زمن الفاطميين فيهمنا ان تخصه بقسم من بحثنا هذا .

كان ديوان الانشاء يتألف زمن الفاطميين من عدد من الكتاب لكل منهم عمل خاص يقوم به ، من تلخيص كتب ، او مراجعتها [1] ، وكتابة تقليدات في الحوادث الهامة ، ومكاتبة الملوك والحكام الاجانب ، [2] ومكاتبة رجال الدولة وكبرائها ووجوهها من الاجناد والقضاة والكتاب وغيرهم ، وانشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار والامانات وكتب الاعيان ، [3] ونسخ ما في الديوان من كتب ومايصدر عنه ، وتبييض الانشاءات والسجلات والتقليدات [4] وغيرها .

---

(١) المقريزى ٢ : ١١٧ — (٢) المصدر نفسه ، ١٢٦
(٣) المصدر نفسه ، ١٣٠ (٤) المصدر نفسه ، ١٤٤

يشرف عليهم جميعا كاتب كبير يشترط فيه ان يكون واسع الاطلاع ، له مقدرة على فن الانشاء يقال له رئيس ديوان الانشاء ، [1] او صاحب الدست الشريف ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقوم بتسلم المكاتبات الواردة مختومة ويعرضها على الخليفة . [2] ويليه اثنان في الرتبة ، الموقع بالقلم الدقيق على المظالم المرفوعة ، وصاحب القلم الجليل الذى ينفذ ما يقوم به صاحب القلم الدقيق ويبسطه ويرسله للخليفة . [3]

ولعل القاضي الفاضل كان في هذه الفترة الموظف المسؤول عن انشاء التقليدات والكتب في الحوادث الكبار والمهمات ، لأن ما وصلنا من سجلاته ورسائله التاريخية في آخر العهد الفاطمي يدل على ذلك .

ثم أخذت مكانته ترتفع حتى أصبح يقوم بعمل " موفق الدين بن الخلال " رئيس ديوان الانشاء في ذلك الحين . ولما تم الانقلاب على يدى صلاح الدين ، أصبح القاضي الفاضل يقوم بالوزارة وكتابة السر معا ، وهي الوظيفة التي حلت محل وظيفة رئيس الديوان ، وأصبح عمله في الديوان ككاتب سر " قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة اجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ،

---

(١) ابن الصيرفي ، ٩٥
(٢) المقريزى ٢ ، ٢٤٤
(٣) القلقشندى ٣ : ٤٩١

وتصريف المراسيم وردا وصدرا ، والجلوس لقراءة القُصص بدار العدل والتوقيع عليها "[1] وكان يعاونه في ديوانه نئتان من الكتاب ، كتاب الدست ، الذين كانوا يعاونونه بالجلوس في دار العدل ويقرأون القُصص على السلطان ويوقعون عليها بأمره ، وكتاب الدرج ، الذين كانوا يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن السلطان ، وربما شاركهم في عملهم كتاب الدست[2] .

ولا بد لنا أخيرا من كلمة صغيرة في الناحية الأدبية . فقد ظهرت في هذه الفترة حركة واسعة في التأليف ، واهتم الناس بشعر المتنبي وأخذوا يدرسونه ويشرحونه .[3] واستعملوا فنونا شعرية جديدة بعضها من منابع البيئة مثل وزن الزكالش الذى يسميه العراقيون كان وكان ، وبعضها وافد مثل الموشحات التي برع فيها ابن سناء الملك وألف فيها كتابه " دار الطراز في صنع الموشحات " .

وتابع صلاح الدين سياسة الفاطميين في اهتمامهم بأمر الأدباء والشعراء وتشجيعهم واغداق الأموال عليهم في حال اعجابه بشعرهم . كما فعل مع أبي حفص عمر بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة حين وهبه الف دينار على قصيدة مدحه بها ، أولها :

---

(1) القلقشندى ٤ ، ٣٠
(2) المصدر نفسه ، ٣٠
(3) ابن الاثير ــ الوشي المرقوم ١٠

سلام مشوق قد براه التشوق على جبة الحيّ الذين تفرقوا (1)

ومع المهذب بن مماتي عندما أنعم عليه بالخلعة والضيعة عندما أنشده وهو مخيم بظاهر حمص قصيدة اولها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى الا ليطرقه الخيال اذا سرى (2)

وغـيرهـما

وحذا حذوه صلاح الدين في تقريب الادباء والشعراء اقرباءه ورجال دولته ، من بينهم القاضي الفاضل الذى كان يرعى مجموعة الادبـاء في عصره ويقربهم من السلطان ويعطيهم المراكز العالـية ، وقد كان لتضافر الجهود هذه في اعطاء الاديب مكانته أثر عامل في ازدهار أدب الفترة .

---

(1) ابن خلكان : 6 ، 210 - 211

(2) الاصفهاني : 1 ، 169

الكتاب الأول

سيرة القاضي الفاضل

مدخل للتعريف بنسبه وأسرته

عبد الرحيم ابن علي بن أحمد بن الفرج بن أحمد ، ابو علي ، الملقب بمحيي الدين ،[1] ومجير الدين[2] البيساني ثم العسقلاني ثم المصري .[3] ينحدر من قبيلة لخم العربية .[4]

اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته نذكر اكثرهم[5] انه ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، بينما ذكر بعضهم[6] انه ولد سنة ستة وعشرين وخمسمائة ، والأصح ان يكون قد ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ذلك انه اشار في احدى رسائله الى أنه تجاوز السبعين عاما حيث قال " فان السبعين قد جزت عتبتها ، وقطعت عقبتها . وأسأل الله الخيرة في القدوم عليه ، واللطف عند الوقوف بين يديه ".[7] وتوفي سنة ستة وتسعين وخمسمائة حسب اجماع المؤرخين لسيرته مما يؤكد صحة الرواية الثانية في مولده .

ولد في مدينة عسقلان[8] ونسب اليها ، كما نسب الى بيسان لأن والده القاضي الاشرف ابا المجد علي بن الحسن ، يتولى قضاءها ونظرها من قبل الفاطميين مدة طويلة[9] انتقل بعدها الى عسقلان ليتولاهما فيها ، وانتهى به المقام في القاهرة حيث لقي حتفه سنة ست واربعين وخمسمائة على أثر عدمة انقدتما لمرسمعته .

---

(١) المقريزي : ٢ ، ٣٦٦
(٢) ابن خلكان : ٢ ، ٣٣٦
(٣) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٤
(٤) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢٠ ـ المقريزي : ٢ ، ٣٣٦
(٥) ابو شامة : ، ابن خلكان : ٢ ، ٣٣٦ ، المقريزي : ٢ ، ٣٦٦
(٦) ابو الفدا : ٣ ، ٩٨
(٧) الفاضل من كلام الفاضل ، مخطوط مصور ، الصفحات غير مرقمة
(٨) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢٠
(٩) المصدر نفسه : ٦ ، ٢٢٠

ذلك انه اختلف مع والي الناحية من أجل " كند [1] كبير كان له عندهم قيمة كبيرة ، فداجى الوالي في حقه وأطلقه - فاستدعي الوالي الى مصر لذلك وطولب بمال طائل - فاحتمى ببعض أمراء الدولة ، وجعلوا الاقاويل في حق القاضي الاشرف فاستدعي وصودر الى ان لم يبق له شيء ، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة " . [2]

وكان عبد الرحيم احد ثلاثة أخوة نشأوا وأقاموا في بادئ أمره في مدينة عسقلان حتى شب عبد الرحيم فانفصل عن أخويه ليقيم في مصر سعيا وراء علمه ورزقه ، مخلفا أخويه في عسقلان الى ان احتلها الفرنج سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فلجآ اليه حيث كان يقيم في الاسكندرية ، [3] وشقا طريقيهما في ميدان العمل فيها ثم تمكن احدهما ، وهو عبد الكريم من تحصيل ثروة طائلة نتيجة عمله بولاية الحكم والاشراف في البحيره . [4] الا ان علاقاته مع أخيه عبد الرحيم كانت سيئة وانتهت بشجار بين الأخوية جعل حال عبد الكريم يتضع بين الناس بعد احترامهم له ، وتسببت في تركه عمله . [5] والظاهر ان سوء خلق عبد الكريم وعدم استقامته كانا سببا في ثورة اخيه عليه وفي تسبيب بعض المشاكل له . فقد كان متزوجا بامرأة موسرة من بني ميّسر ، سكن معها في ثغر الاسكندرية ، وأساء عشرتها ،

---

(١) كذا في الأصل ولعلها كز
(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ٢٢٠ .
(٤) اختصاص وظيفة الاشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة من قبل سلطان او أمير . ويسمى متوليها المشرف " المقريزي : السلوك ١ ، هامش ١ ، ١٢٧ " .
(٥) المصدر نفسه ، ١٢٧

فسار ابوها الى الاسكندرية واثبت عند قاضيها غرر ابنته ، فمضى القاضي الفاضل بنفسه الى الدار ، فلم يقدر على فتح الباب الذى من داخله المرأة . فأمر بنقب الدار ، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها واعاد بناء النقب . [1] وتوصل بعبد الكريم غناه وطمعه الى ان عرض على الملك العزيز اربعين الف دينار لقاء ولاية قضاء الاسكندرية ، لكن الملك العزيز رفض العرض قائلا ، اذا قبلت هذا منه ، اكون قد بعت اهل الاسكندرية ، وهذا لا افعله ابدا . [2] وقد قبض على اخيه هذا عام ٦٠٢ هـ وأخذ خطه بعشرين الف دينار أداها . [3] وأما اخوه الثاني فلا نعرف عنه الا ما ذكره ابن العماد الحنبلي من انه كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب ، وكان عنده مائتا الف كتاب ، من كل كتاب نسخ كثيرة حتى الصحاح ثماني عشرة نسخة . [4]

---

(١) المصدر السابق ، ١٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ١٢٧

(٣) المصدر نفسه ، ١٦٥

(٤) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٤ - ٣٢٥

مراحل حياته

نستطيع ان نقسم حياته العملية الى ثلاث مراحل متمايزة : أولاها الفترة بين نشأته الأولى منذ ان انتقل الى مصر حتى نهاية الدولة الفاطمية ، وثانيها ، الفترة التي عاشها في صحبة صلاح الدين ، وهي تمثل الذروة الكبرى في حياته ، عامة ، والثالثة ، ما بعد ذلك حتى وفاته ، وهي فترة الانحدار وانحسار النشاط السياسي ، مع الاحتفاظ بالمكانة المعنوية ، وتوقعه للموت واستسلامه للمرض والشيخوخة والموت .

المرحلة الأولى من حياة القاضي الفاضل

" ٥٤٤ ـ ٥٦٤ هـ " " ١١٤٩ ـ ١١٦٨ م "

بدأ المؤرخون لسيرة القاضي الفاضل الحديث عنه باسهاب منذ انتقاله الى القاهرة ، واختلفوا في تعيين السنة التي انتقل اليها فيها ، وسبب رحيله اليها . فأورد ابن خلكان رواية ذكر فيها ان والد القاضي الفاضل أرسله الى القاهرة في عهد الخليفة الحافظ [1] ليتدرب على الكتابة الديوانية . ثم صححها برواية أخرى ذكر فيها انه انتقل اليها مع والده في عهد الخليفة الظافر [2] حوالي عام ٥٤٦ هـ . [3]

---

(١) تولى الخلافة في مصر منذ ٥٢٤ حتى وفاته عام ٥٤٤ " ابن خلكان : ٢ ، ٤٠٠ "
(٢) تولى الخلافة منذ عام ٥٤٤ هـ حتى وفاته ٥٤٩ هـ " ابن خلكان : ١ ، ٢١٥ "
(٣) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢٠

الا ان غيره ممن آرخوا للقاضي الفاضل ذكروا ان والده ارسله في عهد الخليفة الحافظ الى ديوان المكاتبات في القاهرة زمن الخليفة الحافظ ليتدرب على الكتابة الديوانية فيه .(١) اذ كان من العادة كما ذكر القاضي الفاضل " ان كلا من ارباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الادب أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع ".(٢) وقد تكون هذه أصح الروايات ، اذ انه اتصل مباشرة بابن الخلال (٣) رئيس لديوان الانشاء في ذلك الحين وبدأ التدرب على يديه .(٥) وليس بمستبعد ان يكون قد انتقل الى مصر في اواخر عهد الحافظ اذ ان ابن الخلال تولى الديوان منذ اواخر عهد الحافظ حتى عهد العاضد (٥) وكان من اول كتاب العصر الذين اتصل بهم القاضي الفاضل . وقد قص حكاية أول اتصاله به بعد تعريفه بنفسه فقال " وسألني ما الذى اعددت لفن الكتابة من الكتابة والالات فقلت ليس عندى شئ سوى اني أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة ، فقال وفي هذا بلاغ ثم أمرني بملازمته فترددت اليه وتدربت بين يديه ثم أمرني بعد ذلك

---

(١) المقريزى ٢ ، ٣٦٦

(٢) المصدر نفسه ، ٢ ، ٣٦٦

(٣) موفق الدين ابن الخلال ، تولى ديوان الانشاء في اواخر عهد الخليفة الحافظ والظافر ، وخدم في عهد العاضد ، اشتهر بقوته في الترسل ، عاش كثيرا وأضر في آخر عمره ، توفي عام ٥٦٦ هـ "ابن خلكان ، ٦ ، ٢١٩ " .

(٤) المقريزى ، ٣٦٦

(٥) تولى الخلافة في مصر منذ عام ٥٤٩ هـ حتى وفاته عام ٥٦٧ هـ . وكان آخر الخلفاء الفاطميين فيها " ابو شامة ١ ، ١٩٣ " .

ان أحل شعر الحماسة فحللته من أوله الى آخره ،ثم أمرني ان أحله مرة ثانية فحللته " . [(١)]

قضى القاضي الفاضل مدة وجيزة فيالقاهرة ، لم تتحسن خلالها احواله المادية ،ولم يرتو فيها طموحه الى المركز والمجد . " ولعله نظم في هذه الفترة البيتين التاليين ، فانهما يشيران الى حاله ونفسيته حينئذ :

ما ضر جهل الجاهلين ولا انتفعت انا بحذقي
وزيادتي في الحذق فهي زيادة في نقص رزقي [(٢)]

وراح يتطلع الى مكان آخر يجد فيه من يقدره حق قدره ، فقصد الاسكندرية حيث اتصل بابن حديد ، قاضيها وناظرها وعرفه بوالده فاستكتبه [(٣)] واستأثر به في ديوانه حتى ولي وزارة مصر العادل بن رزيك بن الصالح بن طلائع [(٤)] كما يذكر عماره اليمني ،فأعجب بكتابته وطلب من والي الاسكندرية نقله الى القاهرة ليعينه رئيسا لديوان الجيش فيها . [(٥)]

---

(١) ابو شامه : ١ ، ١٩٢ — ١٩٣
(٢) الصفدى : ٢ ، ٧٣
(٣) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢٠
(٤) رزيك بن طلائع ، تولى الوزارة المصرية بعد والده ،وكان يلقب بالناصر . قتل شاور عام ٥٥٨ " أبو شامة ١ ، ١٣٠ "
(٥) اليمني ، ٥٣

أورد كل من ابن خلكان وابن كثير رواية مختلفة تمام الاختلاف عن رواية عمارة في زمن وسبب رجوع عودته ثانية الى القاهرة ، فذكر ابن خلكان انه عاد الى القاهرة زمن الخليفة الظافر ، ذلك ان مكاتبات ابن حديد كانت ترد بخط القاضي الفاضل الى مصر ، "وهي في غاية البلاغة ، فحسده كتاب الانشاء على فضله وخافوا من تقدمه عليهم وسعوا الى الظافر به محتجين بأنه مقصر في الكتابة وكان صاحب ديوان الانشاء القاضي ابن الزبير [1] فقال للخليفة : يا مولانا ، هذا الرجل ما منه تقصير ، وانما حسده هؤلاء الكتاب وسعوا به ليؤذيه مولانا الظافر ، فقال الظافر ، فتكتب الى ابن حديد ليرسله الينا ويكتب لنا ". [2]
وذكر ابن كثير ان شاور [3] اول من استكتب القاضي الفاضل فقد " استدعى به من اسكندرية من باب السدرة فحظي عنده وانحصر منه الكتاب بالقصر لما رأوه من فضله وفضيلته " . [4]

والأرجح ان رواية عمارة اليمني اصح من هاتين الروايتين ، ذلك انه عاصر كلا من القاضي الفاضل والملك العادل بن رزّيك ، وذكر في تاريخه لسيرة ابن رزّيك قوله " ومن محاسن أيامه ، وما يؤرخ عنها بل الحسنة التي لا توازى واليد البيضاء التي لا تجازى خروج امره الى والي الاسكندرية بتسيير القاضي الاجّل الفاضل ،

(١) احمد بن علي بن الزبير ، من شعراء شاور السعدى ، توفي عام ٥٦٢ هـ "ابن تغريبردى ٥ ، ٣٧٤
(٢) ابن خلكان : ٦ ، ٢٢١
(٣) شاور بن مجير السعدى — تولى الوزارة المصرية عام ٥٥٨ هـ ومات مقتولا على يد صلاح الدين عام ٥٦٤ هـ
(٤) ابن كثير : ١٢ ، ٢٥٩

ابي علي عبد الرحيم بن علي البيساني الى الباب ، واستخدامه في حضرته وبين يديه في ديوان الانشاء " . [1] كما اشار القاضي الفاضل في مدحه لابن رزّيك الى فضل الاخير عليه ، ورفع منزلته حين قال :

رعى لي ، رعاه الله ، اكرم صحبة	واخطأت بدر التم ليس له صحب
وبدّلني من حالة ذبت رحمة	بها حالة قد هز معطفها العجب
وأحضرني من مجلس الأنس حضرة	لعيشي بها خفض ، وقدري بها نصب
وكان لي الدهر الغشوم محاربا	وقد وضعت اوزارها عند(؟) الحرب [2]

علا شأن القاضي الفاضل في مصر زمن العادل بن رزيك الذى عقد معه اواصر مودة وصداقة لم تطل مدتها ، اذ سرعان ما اغتيل ابن رزيك بيد شاور [3] تاركا الفاضل تائها حائرا متسائلا ، هل يتصل بقاتلي صديقه ويبقى محافظا على مكانته او ينزوى ويتخلى عن طموحه فتضيع حقوقه . ولعله حاول أن يتمرد في بادئ الأمر على شاور ، فاضطهد كما يدل قول الشاعر البغدادى ابي الحسن علي بن نصر بن عقيل ، على سبيل التنديد له بقوله " انا خلصتك في أيام شاور مرتين ودافعت عنك دفعتين ، وهذه قصائدك في مدحي ، ومقاصدك لمنحي " [4] لكنه عاد فاتصل بالكامل بن شاور الذى أعجب به واتخذ منه صديقا ثم سعى له عند ابيه شاور

---

(١) اليمني ، ٥٣

(٢) البيساني : ١ ، ١٥٩

(٣) قتله سنة ٥٥٨

(٤) ابو شامة ١ : ٢ ، ٢٤١

فعينه مساعدا لابن الخلال في ديوان الانشاء [1] فازدادت منزلته علوا ورفعة وبدأت امانيه في الوصول الى رئاسة الديوان تتحقق تدريجيا . فقد مرض ابن الخلال واضطر ان يلزم بيته ، وكان القاضي الفاضل ينوب عنه في العمل حتى بدأ زملاؤه الكتاب يحسدونه وينقمون عليه ، ولما تولى اسد الدين شيركوه الوزارة طلب كاتبا ، فظن رؤساء الديوان ان هذا أمر لا يتم وان اسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا بالفاضل اليه وقالوا لعله يقتل فنتخلص من مزاحمته لنا " . [2] لكن حسبانهم اخطأ ، فاتصل بأسد الدين الذى أعجب باتقانه وسمته ونصحه " فاستكتبه ورفع من قدره حتى ملك صلاح الدين فاختاره مشيرا ووزيرا "واستعان به على ما اراد من ازالة الدولة الفاطمية" . [3]

ويبدو ان عبد الرحيم نال لقب القاضي الفاضل قبل اتصاله بصلاح الدين اذ يذكر المقريزى في تلقيبه " بالقاضي الفاضل " انه كان معتقلا مع الكامل ابن شاور في دار ملهم أخي ضرغام عند نشوب الفتنة بين شاور وضرغام سنة ٥٥٩ هـ ، وانعقدت بين الاثنين مودة وصداقة أثمرت عند انتصار شاور على خصمه ضرغام وعودته الى الوزارة – اذ أدخله " الكامل الى ابيه ومدحه عنده واثنى عليه فسماه حينئذ بالقاضي الفاضل " . [4]

---

(١) المقريزى ؛ ٢ ، ٣٦٦
(٢) المصدر نفسه ، ٣٦٦
(٣) المصدر نفسه ، ٣٦٦
(٤) الشيال ، ٥٩٦ اعن المقريزى ، اتعاظ الحنفا في اخبار الائمة الخلفاء ١٥٥

وقد أورد القلقشندى رواية مختلفة بتسميته بالقاضي الفاضل اعتقد انها اصح من الرواية الأولى ، ذكر فيها ان لقب القاضي كان يطلق على أربا ب الأقلام في الجملة ، سوا' كان صاحب اللقب متصديا لهذه الوظيفة اوغيرها كسائر الكتاب العلما' ومن في معناهم . [1] وان لقب الفاضل كان اكثر ما يقع في القاب العلما' ، وانه ربما وقع في القاب الكتاب ، وهو خلاف الناقص ـ والمراد به زائد الفضل وبه لقب " القاضي الفاضل " عبد الرحيم البيساني الكا تب المشهور " . [2]

ويتمثل لنا القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته في صورة شا ب طموح يريد ان يبلغ المجد بموهبته في الكتابة . وقد اعلنت موهبته عن نفسها لذوى الشأن يومئذ واحرزت له بينهم منصبا في الديوان ـ وكسبت له بين الشعرا' والكتا ب منزلة يمدح من اجلها ويقصد ، وهو موظف مخلص للدولة التي يعيش في ظلها ، مخلص لمبادئها حتى انه يمدح الخلفا' الفاطميين ويشيد بأخلاقهم عامة ويرى انهم وارثو الأرض كلها .

---

(١) القلقشندى ، ٥ ، ٤٥١

(٢) المصدر نفسه ، ٦ ، ٢٢

لكم في زبُور الله يا مبلغي الذكر　　وراثة هذى الأرض والخلق والأمر
فلا تحسبوا مصرا تخص بملككـــم　　فلا مصر الا سوف يلجا الى مصر [١]

وهو ازاء مدحهم ندد بالعباسيين وبشعارهم " اى السواد " فقال :

نفينا سواد الليل عن دولة الهدى　　فلا راية سودا ولا أمة سودا
وبين مجازاة ضربنا وجـــزيـة　　نمن طائع أدّى ومن خالع أودى [٢]

ومدح الخليفة العاضد وحاول دائما التقرب من الطبقة الحاكمة كلما سنحت الفرصة فنراه عام ٥٤٩ هـ في الوفد الذى قصد طلائع بن رزّيك ليهنئه في بالوزارة . [٣] ووصل أسبابه بعد انتقاله الى القاهرة برزيك بن طلائع الذى تولى الوزارة عام ٥٥٨ هـ ومدحه . [٤] كما مدح شاور وأشار بشجاعته واخلاصه للفاطميين واشار الى استنجاده بالفرنج ليطرد اسد الدين شيركوه من البلاد :

---

(١) البيساني ، ٢٢٠

(٢) المصدر نفسه ، ١٩٦

(٣) ابن ميسر : ٢ ، ٩٤

(٤) البيساني ، ١٥٦

أقمت علـيه الحد بالحد ضاربا بسيف اذا ما اهتز قد بان سكره
علاكم علا أسكرته بمدامهـــا نلم يجنه الا قام بالسكر عذره

وزعم في هذه القصيدة ان مجئ الفرنج لنصر شاور انما هو آية نبوية لانها حققت نفع من يخشى منه الضرر .(١)

اما شجاع بن شاور فكان له اكبر نصيب من مدح القاضي الفاضل لانه هو الذى توسط له لدى ابيه حتى عينه مكان ابن الخلال .

ومن تصدى لرؤية القاضي الفاضل في هذا الدور من حياته لم يكد ينفي عنه " الوصولية " فهو ثانوى القيمة ، صغير المكانة نسبيا، يهمه ان يؤمن وظيفته ويحرص علـــى استبقائها ، وليس ثمة من قلق داخلي يعكر عليه هذا الاندفاع في سبيل الفاطمية ورجالاتها ، يؤثر الاستنصار بالفرنج في سبيل المنافسات الفردية على القضية التي يمثلها اسد الدين شيركوه قائد نور الدين . ولذلك فان الناظر اليه في المرحلة الثانية قد يحيره ماضيه فيتساءل هل استمر القاضي الفاضل في هذا المبدأ الوصولي وانحاز الى صلاح الدين لانه وجد فيه كسبا اكبر او ان الحقيقة بزغت لعينيه فجأة فاذا هو حيث قدر ان يكون مندفعا باخلاص حقيقي . ويخيل الي وأنا استعرض حياته في المرحلة الثانية ان صلاح الدين هو الــذى استكشف القاضي الفاضل . وان الفاضل ايضا وقع على حقيقة الموقف الذى يمثله صلاح الدين وتضافر الرجلان على تحقيق غاية كبيرة أحسا بها ثم تبيناها رأى العين وعملا في اخلاص منقطع النظير ، كل في ميدانه ، على تحقيقها .

---

(١) البيساني ، ٢٠٠

المرحلة الثانية من حياة القاضي الفاضل

٥٦٤ — ٥٨٩ هـ (١١٦٨ — ١١٩٣م)

في كنف صلاح الدين

أخذ القاضي الفاضل في مطلع هذا العهد جانب الاتجاه السياسي الجديد الذى كان يرمي الى القضاء على الفاطميين وعلى مذهبهم وتعاليمهم وآثارهم المكتوبة . وكان تنكره للعهد الماضي ملموسا في عدة صور ، فهو يقر صلاح الدين على احلال المذهب السني محل الشيعي [١] ومكتبات الفاطميين تعرض عليه قبل ان تذهب للحرب حتى ينتقي منها ما يستحق البقاء ،[٢] بل انه لا يشفع في أى حركة تثور ضد الوضع الجديد ، وحادثة عمارة [٣] مثل بارز على ذلك . فقد كان عمارة من الشعراء الذين عاصروا القاضي الفاضل في أواخر العهد الفاطمي وأول عهد صلاح الدين ، وكان معجبا بالفاضل ، مدحه بمدائح عدة ، وأثنى على ابن رزيك لاحضاره من القاهرة . الا ان عمارة ظل متعصبا للفاطميين بعد انتهاء حكمهم ، وكان ايمجد هم علنا ، كما رثى عهدهم ورثاهم بقصيدة طويلة قيل ان صلاح الدين لما وقع عليها تغيّر عليه ، وقيل انه استفتى في قتله في قوله في قصيدة ميمية :

---

(١) المقريزى : ٢ ، ٣٦٦

(٢) ابو شامة : ٢ ، ٣٩

(٣) عمارة اليمني ، شاعر يمني الاصل — جاء الى مصر حوالى عام ٥٥٠ هـ ومدح خلفاءها الفاطميين ، اتهم بالاشتراك في مؤامرة مع الشيعة لقلب نظام صلاح الدين فشنق عام ٥٦٩ هـ " ابن خلكان : ٣ ، ١٠٧ ، ١١٠ " .

وكان مبدأ هذا الدين من رجل سعى فأصبح يدعى بسيد الامم

فأفتى العلماء بقتله ، وشجعه القاضي الفاضل على ذلك . فعظما استشاره صلاح الدين في الاكتفاء بضربه قال ، الكلب يسكت ثم ينبح ، قال فيسجن ، قال ، يرجى له الخلاص ، قال فيقتل ، قال الملوك اذا أرادوا شيئا فعلوه ونهض . فأمر بصلبه فلما امسكوه قال ، مروا بي على باب القاضي الفاضل ، فلما رآه مقبلا قام ودخل واغلق الباب ، فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو العجب (١)

وكان عمارة يقول :

تست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف علي ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل لـــترة كلام العدى فيها علي كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضـــله وصلت اليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف علي فانـــــني نقير الى ما اعتدت منه عديم (٢)

واعتقد ان هناك تغييرا أصيلا حدث في نفسيه الفاضل ، ويستطيع المتتبع لخط حياته من بعد ان يلحظ كيف اندفع مع هذا الاخلاص الجـــديد الى النهاية ، ولم يكن موقفه امعانا في " الوصولية " التي وجدت حقلا كسبا وفيرا ،

---

(١) الصفدي ، ٢ ، ١٨٠
(٢) ابو شامة : ١ ، ٢٢٣

تمني العهد الصلاحي ، ومن اسباب ذلـك في رأيي :

١ــ ان القاضي الفاضل وان وصل اسبابه بالفاطميين فان العقيدة الفاطمية لم تعمق في نفسه ، وان انضواءه اليهم كان يوجد صراعا مذهبيا في نفسـه ، فلما وجد الفرصة سانحة تغلب لديه الميل السني فسانده حتى النهاية ، وربما لم تكن الشواهد على هذا الغرض بينة واضحة ولكنني أوثر ان أرى في اخلاص القاضي الفاضل ثورة نفسـية على تردده السابق وتكفيرا عن خضوعه لظروف البيئة التي عاش فيها .

٢ــ ان شخصية صلاح الدين هي التي رسمت نقطة التحول في حياته ، فان اعجابه بـه وايمانه بغاياته كان كافيا ليدفع به في هذا الطريق على نحو مخلص .

٣ــ انفق القاضي الفاضل المرحلة الأولى من حياته في جو عابق بالاضطراب السياسي الداخلي والخارجي ، وشاهد وزراء الفاطميين يتقاتلون علـى المناصب ويستعينون بأعدائهم الفرنجة للمحافظـة عليها (١) . كما شاهد الفرنجة يدخلون البلاد ، يخربونها ويستغلون اموالها ، ولم يغمض والده وهو يتعذب في محنته الناتجة (٢) عن ظلم الحكام والتي عجلت بوفاته . ولعل هذه العوامل ولدّت في نفسـه حقدا على الفاطميين ووزرائهم المتأخرين الذين اضطر ان يمدحهم ليصل الى هدفه الـذى طالما تمنى تحقيقه ، واستطاع ان يحققه على يد صلاح الدين . فقد وقف الى جانبه

---

(١) كما فعل شاور حين تضافر مع الفرنج عام ٥٥٩ هـ لمنع شيركوه من مد نفوذه ، " ابو شامة ١ ، ١٣١ " .

(٢) ابن الأثير ١١ ، ١٤٨ ـــ ١٤٩

منذ البداية يشجعه على ما كان يقوم به من اعمال اصلاحية في مصر ، حتى آن الأوان للقضاء على الدولة الفاطمية ، فشجعه وهلل له عندما قام بعمله هذا ، وشعر بشيء من الراحة لأن أمنية كبيرة من أمانيه تحققت .

٤ـ انفتح امامه المجال الأوسع لتحقيق الأمنية الثانية وهي الكبرى فقد كان القاضي الفاضل فلسطيني الموطن من عسقلان ، اغتصبت أرضه وتشردت عائلته بعد ان احتل الفرنج البلاد ، كما قاسى في طفولته من عذاب عدم الاستقرار والتشرد اللذين سببهما الصليبيون له ولعائلته . وشاهد الصليبيين في مصر عدة مرات حين جاؤوا يريدون احتلالها وأرهقوا اهلها بطلباتهم فنقم عليهم ونذر نفسه لمقاومتهم ومحاربتهم واستخلاص البلاد منهم . ولم يترك فرصة صغيرة ولا كبيرة تسنح له منذ البداية دون ان ينادي للجهاد ولمحاربة الفرنج ومقاومتهم ويحذر من استفحال أمرهم . وقف الى جانب الوزير شاور في حربه الأخيرة لهم مهددا بعض القبائل المتخلفة عن الجهاد المقدس بحدة قائلا " وان سيف الانتقام أغمد فيكم وتغمدكم عن الجهاد فالآن أي العشرتين (تستقيلون) وأي العذرين تقولون ، تعودكم عن الجهاد الذي فرضه الله على الخلق عموما وأوجبه عليكم خصوصا لأنكم تنزلون بلادا وأعمالا وترتزقون ... تقالا فبأي حق تستحقونها اذا لم تناضلوا ، وأي فرق بينكم وبين نسائكم اذا لم تقاتلوا ، ولقد ألحقتم العار بالعشائر وذخرتم في الأيام شد الذخائر " . (١)

---

(١) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، مخطوط مصور

ولم يترك فرصة تفوته دون التذكير بالجهاد ، فقد ذكره بسجله الخاص بتولية ابن مصال ثغر الاسكندرية [١] ولأسد الدين شيركوه [٢] كما ذكره لصلاح الدين [٣] في سجله وفي اذنه ، فوجد لديه أذنا صاغية راح يغذيها بآرائه التي أثمرت وأعطته ما اراد وجعلته يرى امنيته الكبرى تتحقق فيدخل القدس وعسقلان وطبرية [٤] وهكذا ويشاهد باقي المدن الفلسطينية متحررة ، شعر عندئذ بالكثير من الراحة والطمأنينة لانّه ادى رسالة كبرى لوطنه .

اذن يمكننا ان نقول : ان أهم عامل في تحول القاضي الفاضل هو انفتاح نفسه بشدة على معنى الجهاد وهي الغاية التي كرس لها قلمه ودفع بصلاح الدين الى اعتناقها ، وهذا وحده كاف للتدليل على ان ما أصاب نفسية القاضي الفاضل كان أمرا أعمق من مجرد الكسب المادى او الجاه في ظل دولة جديدة .

وهكذا كان اتصال القاضي الفاضل بصلاح الدين بداية سجل جديد في حياته ، فقد أصبح الشخص الثاني في البلاد يشير على السلطان وأولاده فيعملون بمشورته ، ويهتم بمصلحة السلطان وأولاده ويمنحهم ما في وسعه من تدبير وادارة .

---

(١) القلقشندى : ١٠ ، ٣٧٤

(٢) المصدر نفسه : ١٠ ، ٨٤ — ٩٠

(٣) المصدر نفسه : ١٠ ، ٩١

(٤) للقاضي الفاضل رسائل طويلة في هذه المناسبات ، تراجع في صبح الأعشى ٦ر٥٠٥ — ٥١٠ وفي مخطوط " من ترسل القاضي الفاضل " و " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ".

ويعمل بكل اخلاص وتفان حتى بات السلطان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وتمكن بدهائه وحكمته ان ينجي صلاح الدين من الوقوع في أيدي الفرنج عام ٥٧٢ هـ ، ذلك ان صلاح الدين قصد مع بعض رجاله الرملة في فلسطين بصحبة القاضي الفاضل ، وساروا في منطقة جافة لا ماء فيها ولا دليل ، توغل فيها السلطان وبعض جنوده وكادوا يتهيبون ، "لولا ان قدر الله ان القاضي الفاضل كان يستظهر باستصحاب جماعة من الكنانية والادلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وثقاته ، وبث اصحابه في تلك الرمال حتى أخذوا خبر السلطان فقصده . وانتفع السلطان بالادلاء الذين كانوا معه ، ثم فرق القاضي الفاضل ما كان معه من الازواد على المسلمين والمنقطعين وجمعهم في خدمة السلطان . اما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج فقد هلكوا معظمهم" (١) ويعقب ابو شامة على دور القاضي الفاضل في هذه الحادثة بقوله " وكان الناس في مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخول الاجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف لكان أولى به فان الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه " . (٢)

ثم شارك السلطان صلاح الدين في رحلته الاولى الى الشام بعد ان استتب له الامر في مصر وشاهد معه فتوحاته داخل سوريا ووقف الى جانبه يشجعه ويكتب عنه البشائر الى ذوى النفوذ في البلاد الاسلامية ، واضطر ان يفارقه فترة قصيرة ينعم فيها

---

(١) ابن واصل : ٢ ، ٦١
(٢) ابو شامة : ١ ، ٢٧٣

فتوحاته في سوريا ويشرف على العمليات الحربية فيها ، ليقوم هو " القاضي الفاضل " بمراقبة الاعمال الادارية والحربية في مصر ، ويشرف على تجهيز الجيش المصري استعدادا لغزو فلسطين واستردادها من الفرنج . حتى انه حالما طلب السلطان مجيئه اليه عام ٥٨٣ هـ جاء مع جيش مزود برئاسة تقي الدين عمر ، ابن اخي صلاح الدين [١] واستقر في دمشق للاستشفاء والاشراف على امورها تاركا صلاح الدين وجيشه واعوانه يقصدون فلسطين لمحاربة الفرنج ، وما ان علم بفتح القدس حتى ذهب اليها ليشارك صلاح الدين وجنوده فرحتهم وليكتب البشائر بذلك الى الخليفة ببغداد .

وكان السلطان يعتمد عليه في اموره الخاصة ويستشيره قبل ان يقدم على أي عمل مهما كان خاصا . فعندما قرر ان يوزع ملكه بين اولاده استشار القاضي الفاضل ، بتولية ابنه العزيز عثمان مصر ، والافضل دمشق ، والظاهر حلب ، وابن اخيه تقي الدين عمر حماه وبعض ضواحيها ، وأخاه العادل اتابكا للعزيز عثمان مع اعطائه بعض الاقطاعات . فوافقه على ذلك وصحب العزيز عثمان الى مصر عام ٥٨٥ هـ ليساعده في الحكم بها ويشرف على تجهيز الجيش والاسطول ، وتحضير المعدات الحربية وارسالها الى صلاح الدين في عكا . [٢] وكانت " امور الممالك بمصر بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة ، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد الى احسانه واركانه ، فان استقدمه خاف على ما وراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال

---

(١) ابو شامة : ٢ز، ٥١
(٢) المصدر نفسه : ٢ و ١٦٥

يستشيره والنجابون[١] مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمات " . (٢)

وقد لعب في هذه الفترة دورا كبيرا ، اذ كان في مصر موضع السر والخبر ، فهو يتسلم الأخبار من صلاح الدين في عكا ليرسل بها الى حكام المسلمين في بغداد والمغرب واليمن ، ويتسلم اخبار الفرنج في الغرب ليخبر السلطان بها . ويرسل له في الوقت ذاته مخبرا بكل ما يجرى في البلاد من أمور وتطورات وبما يعد من تجهيزات حربية . ووقف في هذه الفترة وقفة قوية ناضل فيها بقلمه خير نضال ، فقد شعر بحاجة السلطان الى قوات جديدة وتزويدات واسلحة فراح يرسل في طلبها من حكام المسلمين مستعطفا ومستنجدا ومؤنبا وقت الحاجة ، مذكرا اياهم بضرورة الجهاد لتخليص البلاد وبواجبهم المقدس ، وبحاجة الاسلام الى توحيد القوى وبجزائهم في الآخرة . قال في احدى رسائله " فالبدار الى النجدة البدار ! والمسارعة الى الجنة فان البحار لا تلقى الا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجهها الا الملوك الكبار " . (٢)

وقال في أخرى مستعطفا ومنبها الى خطر الفرنج :" وما بين المسلمين والفرنج الا واحدة كلمح البصر ، ونحن نرصد تلك الواحدة ، ولا نغض عنها عيوننا الواصدة ، فيا جيران بيت الله اسهروا لاستيهامها ، وأتوا البيوت فانتم على ابوابها ، واستمطروا الرحمة فانتم مجرى سحابها ، اين سهام الاسحار التي تكفينا طواق الليل والنهار ،

---

(١) المصدر السابق : ٢ ، ١٨٢

(٢) القلقشندى : ٧ ، ٢٥ ـ ٢٦

نحن نعلم ان أقدار الله ستجرى بما وعدته من نصر دينه ، ولكن استعجلوا لنا الاقدار فنحن قد خلقنا من عجل وقد أوينا الى جبل من عرفاتكم كذلك الجبل ". (١)
وأرسل رسائل عديدة فيها الكثير من التوسل والعتاب والطلب دون ان يجد صدى لكلماته في كثير من الأحيان ، فكان يغضب في نفسه ويخبر صديقه العماد عاتبا على هؤلاء الحكام .

طرق جميع الأبواب لتجهيز نجدات الى السلطان ، وتمكن ان يرسل له ما أمكنه من مصر من جنود ومعدات ، ولما رأى ان الحالة اصبحت يائسة الى حد ما وجه اهتمامه الى السلطان وراح يكتب له الرسائل الواحدة تلو الأخرى يثبت عزيمته ، ويشجعه على تحمل الضائقة مذكرا اياه بفتوحاته السابقة وانتصاراته ويهدنه الذى بدأه بتخليص البلاد المقدسة من الفرنج ، ويجزائه عند الله نتيجة جهاده ، وينبهه انه اذا توانى او تخاذل ضاعت جميع جهوده سدى ، وعليه ان يستميت او يموت في سبيل الجهاد . وقال له في احداها :
" وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة ، والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الانفاق الى ما لا يسعه التدبير ويضيق عنه الامكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما

(١) الفاضل من كلم الفاضل ، ~~مخطوط مصور ١٠٣~~

يحتاج اليه ، ضياع فرصته ، واختلاف رأى بين المتشاورين من الجماعه ، وجمود الألسنة بالآراء ، وبخل الأيدى بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلي به المسلمون من مرض اظهروه ليكون لهم عذرا في القعود ، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، نهذه الأمور وان كانت شدائد وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر • ولو لم يرالله تعالى ان قوة مولانا يباشر النصرة ويحضرها ، فليس الا التجرد للدعاء ، والتجلد للقضاء • فلا بد من قدرة مفعول ودعاء مقبول ومن الأمثال المنظومة

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا

يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاذ الله ان يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ثم ينصره • ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر • واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه وهو لقاء الله سبحانه ، فلأن نلقاه والحجة لنا ، خير من ان نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون والله معكم • وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بثروة ، انما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف •

لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة (واشتدى ازمة تنفرجي) والغمرات تذهب ثم لا تجيء ، والله تعالى يسمع الاذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الاسلام وأهله فاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب ". (١)

طال حصار عكا وكاد السلطان ييأس ويتجه الى التزهد فأرسل الى وزيره القاضي الفاضل مخبرا بما كان يجول في خاطره ، فحاول ان يثنيه عن عزمه وأرسل قائلا " وقفة قدام قلعة قد امتنعت بأمة قد اجتمعت بنبالة اعد؟ قد ارتفعت ، واستنزالا لهم رافعين ، وطلوع أهل الاسلام اليها هاجمين خير من الف سنة رباط في الكعبة " . (٢) وكتب له في مناسبة أخرى " فالشدة تذهب ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ويبقى اجرها ، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا . والخلفاء والملوك يستحسن ببيتي حاتم ومولانا ابقاه الله وخلد سلطانه يحفظهما .

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر " (٣)

---

(١) ابو شامة : ٢ ، ١٦٦ — ١٦٧

(٢) الفاضل من كلام الفاضل

(٣) ابو شامة : ٢ ، ١٦٨

وعندما اشتد أمر الفرنج على المسلمين في مرج عكا ، أرسل الى العماد قائلا " وعرفت ما جرى على قضيته فسبحت الله تعالى فان من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته ، والامر كان عظيما والمدنوع أعظم والسلامة كانت غريبة الا ان نقول ولكن الله سلم والسلطان أعزه الله اذا سلم فكل الناس قد سلموا ، واذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدموا ، وكل جوهر بالاضافة اليه عرض وهو جوهر بالحقيقة من عنه من كل جوهر عرض " . (١) كما توصل به اخلاصه للبلاد واستماتته في الدفاع عنها ان ثنى السلطان عن الذهاب الى مكة للقيام بفريضة الحج قائلا " ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم ، وافتراق عسكرنا ، وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه ان يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا اليه والعياذ بالله ، ويفرط من يد الاسلام ، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ، ومن العثرات التي لا تقال ". (٢)

أثّر القاضي الفاضل بقلمه ولسانه كثيرا على صلاح الدين الذى حفظ له جميله واعترف بفضله عندما قال " ما فتحت البلاد بالعساكر ، انما فتحتها بقلم القاضي الفاضل ". (٣) وكان في الوقت ذاته يرعى حقوق القاضي الفاضل ويهتم بأمره ، يجله ، ويكره الابتعاد عنه حتى انه كتب الى احد نوابه عندما طلب منه القاضي الفاضل

---

(١) المصدر السابق ٢ ، ١٤٧
(٢) المصدر نفسه ، ٢٢٥
(٣) الحنبلي ٤ ، ٣٢٧ ؛ سبط ابن الجوزي ٨ ، ٣٠٤

اذ نا للحج قوله " وصلني كتاب القاضي الفاضل ، وهو يذكر انه مصمم على الحج ، الله يجعله مباركا ميمونا ، ولكــن لا أنسح له الا بعد ثنتين ، واحدة انه لا يركب بحرا يسير من العسكر الى أيلة ، ومنه يتوجه ويقيم العسكر على أيلة ليلة وعلى ارم ليلة ودون ارم ليلة وقاطع ارم ليلة ، فيكون هو قد بعد وما يبقى علــيه خوف ان شاء الله تعالى . وثانيه ، تأخذ بيده وتحلفه برأسي انه لا يجاور ، وثالثة تعطيه من مال الجوالي ثلاثة الف دينار ، وتقول له لابد ان تخرج هذا عني لا عنك بمكة والمدينة وفي اهلها ، هذا أمر لا بد منه ، فان الناس لا بد لهم في الطلب ولا بد لك من العطاء ، وان قال ان الشيء قليل فانت تقرضني مثل هذا المبلغ من مالك وتعطيه اياه فلا بد ، والا فلا اذن له في الرواح الى الحج الا على هذه الشروط التي قد اشترطتها ، واما مجيئه فيجيء الى الشام ، فأنا ما بقي لنا دار الا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين " . (١)

بقي القاضي الفاضل ملازما لصلاح الدين حتى قضى السلطان نحبه ، فتولى غسله وكفنه وكفنه من ماله ودفن معه سيفه قائلا " هذا يتوكأ علــيه الى الجنة ". (٢) ثم انتقل الى مصر ليبكيه بدموع حارة منتظرا ومتمنيا موعد التقائه به في الآخرة .

---

(١) ابو شامة : ٢ ، ٨٧

(٢) المصدر نفسه ٢ ٢١٥

المرحلة الثالثة من حياة القاضي الفاضل

" ٥٨٩ هـ — ٥٩٦ هـ " (١١٩٣ — ١١٩٩ م)

ظل القاضي الفاضل محافظا على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين ، فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه ، واتخذ منه ناصحا ومشيرا .[1] الا ان القاضي الفاضل لم يظهر تهافتا واندفاعا على التدخل في امور الدولة ، فقد آثر الانطواء ، والانعزال عن العالم السياسي وتكريس السنوات الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية ، ولا شك ان اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود الى اسباب عدة :

١ — ذلك انه فقد بموت صلاح الدين الرجل الذى وضع فيه كل آماله وتوصل في عهده الى مركز عال لم يكن يحلم بالوصول اليه في عهد غيره ، وكرس له قسطا كبيرا من حياته في نصحه وارشاده ، ووهبه كل ما في وسعه من محبة واخلاص ، حتى اصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته ، فكيف بعد موته ، وافتقاده لصلاح الدين ويأسه من الحياة بعد موته ظاهران في عدد من رسائله التي كان يذكر فيها انتظاره لأيام اللقاء بصلاح الدين في الآخرة " احتجت الى من يؤدبني لربي ، ويضربني على قلبي ، ويعرفني ان ميتي رحمه الله ما ذهب لأبقى ، ولا ذكر لأنسى ،

---

(١) المقريزى : ٢ ، ٢٨٣

وان أهلي الذين مضوا سلفا قصد السبيل ، وفرطا ... التأميل أنا وراءهم بالدثر ، ووارد ما وردوا على الصفو ان شاء الله الاعلى الكدر ، وان لقاءهم أنس تهون به المنية ، وراحة قد كادت تكون من الامنية ، فاني نقدت منهم ومن السلطان من يستحى من الحياة من بعده ، ومن يستوحش من الاحياء لفقده ". (١) ولم يترك مناسبة تمر دون ذكر صلاح الدين ، فقد كان إذا رأى معارف تذكره واذا رأس الناس من حوله وردت صورته لخاطره ، فيزداد يأسا وقنوطا ، ذكر للعماد في احدى رسائله قوله " ولسلوة الايام هو موعد الحشر ، وان ليلة لقائه هي ليلة القدر ، ولقد حي وطابت الحياة ، وتوفاه الله فطابت الوفاة ، وان امرءا يحسن به الفقدان وهما ما هما ، ومولى يطيب به الطوران والحياة بالطيب اولاهما ، لمعذورة فيه القلوب اذا خضعت تحت وطأة الخفقان ، والجفون اذا أمردت عليها موزة الهملان ". (٢)

٢ — لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صاحبه ، فقد تقسمت الدولة ، وتقسم العمل الذى كان يقوم به زمن صلاح الدين بين اشخاص عديدين من بينهم اشخاص لم يكن راضيا عن تصرفاتهم زمن تنفذه كصفي الدين ابن شكر (٣) الذى كان يقول عنه " وأما ابن شكر فهو الذى لا يشكر ، واذا ذكرت الاشياء فانه الشيء الذى لا يذكر ". (٤) وضياء الدين ابن الاثير (٥)

---

(١) الفاضل من كلام الفاضل
(٢) المصدر نفسه ٨٧
(٣) صفي الدين ابن شكر ، وزر للملك العادل ابي بكر ، ثم غضب عليه وعزله سنة ٦٠٩ هـ . توفي عام ٦٢٨ هـ . " النعيمي ج ٢ ، ٤٣٢ — ٤٣٣ " .
(٤) الفاضل من كلام الفاضل
(٥) ابو الفتح نصر الله ، من اهالي جزيرة ابن عمر ، اقام في الموصل مدة ثم اتصل بصلاح الدين واقام عنده ، ثم اقام عند ابنه الافضل . توفي عام ٦٣٧ " طاش كبرى زاده ١ : ص ٢٧٩

الذى حاول ان يبعد الافضل حاكم دمشق عن اصحاب أبيه ". (١) فصعب عليه ان تنخفض مرتبته بعد علوها وآثر الابتعاد عن الجو الذى جرد فيه من نفوذه وسلطانه ، فراح يتحسر على مكانته السابقة بقوله " وقد تبرمت بالحياة ، وبعد ان كنت ممن اخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة ، والاعمار اكثرها الاكدار الا ان اشدها مؤنة ما كان في اواخر المدد حيث يكون المرء في اواخر الجلد " . (٢) وقوله " ونتشبع من الدهر بعد فقد من كنا به علـيه نستطيل وبيده من صروفه نستديل ، بهذا العيش المرقع ، الذى هو كالظهر المرقع ، فان المسافة بيننا وبينه لا يطول ارتحال الانفاس في قطعها بل لقاؤه أقرب الينا من رجعها " . (٣) وكان في بدء هذه الفترة يحاول ان يشير على ابناء صلاح الدين ، الا انه ما لبث ان " تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة اهلها " لما رأى من اختلال الاحوال (٤)

٣— تبدد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرس القاضي الفاضل له قسطا كبيرا من حياته ، فقد تقسمت البلاد التي طالما سعى الى توحيدها وتقويتها بين ابناء صلاح الدين الذين راحوا يتنافسون عليها ويتشاجرون متذرعين بأنانيتهم ومغفلين أمر العدو الرابض على حدودهم ، وهو الفرنج . ولم يدرك أخطار قسمة المملكة بين ابناء صلاح الدين الا بعد ان حدثت فأخذ يدعو للتحالف والتآزر ويحاول التقريب بين الاخوة ، ولم يترك مناسبة تمر دون ان يذكرهم بضرورة توحيد الصف ،

---

(١) ابو شامة : ٢ ، ٢٢٨
(٢) الفاضل من كلام الفاضل
(٣) ابو الفدا : ٣ ، ٨١
(٤) المقريزي : السلوك ١ ، ١٤٦

فكتب للملك الظاهر ابن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء فيها بوالده قوله " وأما لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم " . (١) كما كتب الى احدهم بقوله " والبيت الكريم انا في ولائه وخدمته كما قيل :

ان قلبي لكم لكالكبد الحرّى   وقلبي لغيركم كالقلوب

يسرني ان يمد الله ظلهم ، وان يجمع شملهم ، كما يسوءني ان تختلف آراؤهم ولا تنتظم اهواؤهم " . (٢) ولعب دورا في الصلح بين العزيز عثمان ملك مصر ، والأفضل ملك الشام ، ذلك ان العزيز قصد الشام لاحتلالها ، الا انه اضطر ان يعود الى مصر بعد وصوله الى ابواب الشام بسبب اضطراب بعض العسكر الأسدية عليه ، فتبعه الأفضل والعادل ، أخو صلاح الدين الى بلبيس ، والأفضل مصرّ على دخول القاهرة . فأرسل العادل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين وكان قد اعتزل عن التدخل في أمورهم لما رأى من فساد احوالهم . فسار الى الملك العادل واجتمع به وأصلحا بين الأخوين " . (٣) ثم اعتزل التدخل في امورهم نهائيا ، حتى انه عندما اختلف الأمراء الصلاحية والأسدية بخصوص اتابكية بهاء الدين قراقوش " عام ٥٩٥ هـ " على الملك المنصور ناصر الدين ابن العزيز بعد وفاة والده ، قصدوا القاضي الفاضل

---

(١) ابن خلكان : ٦ ، ٢٠٤
(٢) النويرى : ٨ ، ٨
(٣) ابو الفدا : ٣ ، ٩١

ليأخذوا رأيه فامتنع عن المشورة عليهم ، فتركوه [1] وشاهد في هذه الفترة الفرنج يغيرون على البلاد محاولين استرجاع اقسام منها ، فازداد خوفا من تبديد ما قضى حياته في بنائه مع صديقه صلاح الدين ، وهو استعادة البلاد من أيدى الصليبيين ، ولم يجد القوة التي وجدها زمن صلاح الدين والتي مكنته من التغلب على الفرنج ، ورأى بعض المدن تقع ثانية في أيدى الفرنج فراح يشد من أزر العادل ابي بكر ، أخي صلاح الدين عله يقف وقفات قوية كأخيه فكتب له في احدى الرسائل " وما تجدد من وصول العدو اللعين الى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الافكار فيها من سعة ، وللاسلام اليوم قدم وان زلت زل وهمة وان ملت فان النصر منه مل . وتلك القدم القدم العادلية ، وتلك الهمة الهمة السابقة السيفية فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودقوا ذلك المهاد ، واسهروا في الله ، فليست بليلة رقاد ، ولا ينظر في حديث زيد ولا عمرو ، ولا ان فلانا نفع ولا ضر ، ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر انظروا الى انكم الاسلام كله قد برز الى الشرك كله ، وانكم ظل الله ، فان صممتم تلك النسبة فان الله لا ناسخ لظله . واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تهونوا ، وان ذهب الناصر فان الله خير الناصرين . فما هي الا غمرة وتنجلي ، وهيعة وتنقضي ، وليلة وتصبح ، وتجارة وتربح " . [2] لكنه شاهد بعض المدن تسقط ثانية في أيدى الفرنج ، فراح يتحسر على فرط العقد الذى جمعه مع صلاح الدين ، ويزيد يأسا وانعزالا .

---

(1) المقريزى ، السلوك : ١ ق ١٤٦

(2) ابو شامة : ٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

٤ـ كان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده عن الجو السياسي ، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض ، مما كان يؤخره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حيا ، وفي رسائله كثير من الاشارة الى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين . ذكر في احداها لصديقه العماد الاصبهاني قوله " وسيدنا يعلم كيف حال الكبير اذا فقد الصغير ، والضعيف المتثاقل اذا نودى للنفير ، ما كأني عرفت الأيام الا في هذه الأيام ، ولا كأن الدنيا لبستها الا على ان لا يخلعني الى الحمام . فقد توقعت امر الله ان يطرقني بياتا ولقد وأنا نائم ، او ضحى وأنا هائم (وأحدث) في ضم رجلي واستوحشتني الشخص من ظلي ، وما اخلو في كتب سيدنا من فائدة عائدة ، وموعظة وموقظة " .[1]

كما كتب اليه في احدى رسائله يصف حالته الجسمانية قائلا :

" وأصدرت هذه الخدمة ورجلاى قد عاد النقرس الى تقييدها وتصغيرهما بالالضخة وتسويدهما ، وجنبي طريح ، وما فيّ صحيح الا سمعي فانه صحيح ، واذا خلوت الى شيطان المرض أصيح " .[2] وكتب له في أخرى قائلا " وأما احوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية ، المفاصل مذهبة ، والأسنان مضعدة ، والنقرس يخلي ، وزيادة كالنقص زيادة العصا في ظلي " .[3] ووصف اوجاعه في آخر حياته للعماد بقوله :

---

(١) الفاضل من كلام الفاضل هـ

(٢) المصدر نفسه " غير مرقم "

(٣) المصدر نفسه

" وأخلاق الغلمان وما ادراك ما هيه ، نار حامية ، وقد صرت أرى الصبر على الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة ، فأجوع ولا أقول اطعموني ، واظمأ ولا اقول اسقوني ، وألقيت بيدى وقلت مروا ، ومددت رجلي وقلت جروا " . (١)

ولقد توفي القاضي الفاضل في السادس من ربيع الآخر الأول عام خمسمئة وست وتسعين (٢). قال العماد الاصفهاني في هذه السنة " تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا ، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء الى دار البقاء في داره بالقاهرة " . وذكر في وفاته انه صلى ليلته العشاء في مدرسته وجلس مع الفقيه ابن سلامه مدرسها وتحدث معه ما شاء " وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش ، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل الى منزله صحيح البدن فصيح اللسن ، وقال لغلامه ، رتب حوائج الحمام وعرفني حين أقضي مني المنام فوافاه سحر اللاعلام فما اكترث بصوت الغلام ولم يدر ان كلم الحمام حمى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكوثر اغناه عن الحمام ، فبادر اليه ولده ، فألفاه وهو ساكت باهت ، فعرف ان القدر له باغت فلبث يومه لا يسمع له الا انين خفي علم منه انه يعهد الله وفي ثم قضى سعيدا " . (٣)

وذكر ان القاضي الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشيه ان يستدعيه وزيرها صفي الدين ابن شكر او يجرى في حقه اهانة ، وكانت بينهما عداوة . فأصبح ميتا . وقيل ان العادل لما دخل القاهرة زار قبره . (٤)

---

(١) المصدر السابق نفسه
(٢) ابو شامة ، ج ٢ ، ٢٤١
(٣) المصدر نفسه ، ٢٤١
(٤) ابو شامة ، ٢ ، ٢٤٤

الكتاب الثاني

شخصية القاضي الفاضل

صورته الجسمانية

حفظت لنا المصادر بعض الروايات الهامة التي يمكن أن نتصور منها شكل القاضي الفاضل عامة :

قال الأسعد بن مماتي : " كان القاضي الفاضل ذميم الخلقة ، وكان له حدبة ظاهرة خلف ظهره يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس " (١)
وكان ينشد في نفسه :

ما كان يكمل حسنُ ذا   الحمام حتى ازداد قبّة
فكأنني فيه خسرو   فُ شوا ومن فوقي مكبّة (٢)

وروى موفق الدين البغدادي عنه عندما زاره في فلسطين قوله " دخلنا على القاضي الفاضل فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه ، وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى حتى اذا جاءوها وفتحت لهم ابوابها قال لهم خزنتها ، اين جواب اذا ، وأين جواب لو في قوله تعالى ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ... وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء " . (٣)

---

(١) ابن اياس : ١ ، ٧٥
(٢) الصفدى : ٢ ، ٢٢٥
(٣) ابن ابي اصيبعة : ٢ ، ٢٠٥

وقد أثّر شكله في نفسيته فكان اذا سلم عليه من لا يعرفه آذاه واذا التقاه انسان ولم يسلم عليه اعفاه " (١) ومن النكت اللطيفة عنه قول ابن مماتي " دخلت يوما على القاضي الفاضل فوجدت بين يديه اترجة كبيرة مفرطة في الضخامة وهي من الاترج الشمعي . فلما جلست حدقت اليها وانفق نكر وذهول فأخذ رحمه الله يتبادر على نفسه وقال، يا مولاى الاسعد ما هذه النكرة الطويلة ، ما أنت مفكر الا في خلق هذه الاترجة وما فيها من التكتيل والتعوج وتعجب من المناسبة لها وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها ، فدهشت وانخلع قلبي مني خوفا ثم رجعت الي نفسي قلت لا والله بل أنكرني معنى وقع لي فيها . ويسر أن نظمت :

للحسن بل لله أترجة | قد أذكرتنا بجنان النعيم
كأنما قد جمعت نفسها | من هيبة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد توهمه مني " . (٢) قال الاسعد بن مماتي : ثم اني ذكرت هذه الواقعة لبعض اصحابي فقال لي احمد الله اذ انشدته ذلك من لفظك ولم تكتبهما له فربما تصحفت عليه في اللفظة فيقروءها من هيئة الفاضل عبد الرحيم فيزداد حنقا من ذلك " . (٣)

---

(١) ابن اياس ١ ، ٧٥

(٢) الصفدى ٢ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، ابن اياس ١ ـ ٧٥

(٣) ابن اياس ١ ، ٧٥

وقد كان شكله موضع تندر بعض الظرفاء مثل ركن الدين الوهراني [1] الذى كان يتندر به دون ان يتمكن من التصريح باسمه لعلو مكانته ، فكتب الى احد اصدقائه ذاكرا حمام الفيوم بقوله " فلم اشعر الا والحائط الشمالي قد انشق ، وخرج منه شخص عجيب الصورة ليس له رأس ولا رقبة البتة ، وانما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس " . [2] يقصد القاضي الفاضل .

العناصر الهامة في شخصيته

امتاز القاضي الفاضل بشخصية قوية وذكاء حاد مكنه من التوصل الى مرتبة عالية في الدولة ، وقد اجتمعت اليه خلال كفلت له النجاح في الحياة السياسية في العصر الصلاحي ، منها لباقته ، وتصرفه باتزان وحكمة مكنته من تخليص السلطان من عدة مآزق ، ذكر من بينها ان الحمول تأخرت مدة على صلاح الدين في الشام فطلب من كاتبه العماد الاصفهاني ان يكتب الى اخيه العادل يستحثه على انفاذها حتى قال : يسير لنا الحمل من مالنا او من ماله . فلما وصل اليه ، ووقف على هذا الفصل شق عليه ، وكتب الى القاضي الفاضل يشكو من السلطان من اجل ذلك ، فكتب اليه القاضي الفاضل جوابه ، وفي جملته ، وأما ما ذكره المولى من قوله : "يسيّر لنا الحمل من مالنا او من ماله فتلك لفظة ما المقصود فيها

(1) احد شعراء العصر ، قدم من المغرب وعاش في مصر "الصفدى ٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٧ "
(2) المصدر نفسه ٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٧

من الملك النجعه ، وانما المقصود من الكاتب السجعة . وكم من لفظة نظة ، وكلمة فيها غلظة صيرت عي الأقلام نسدت خلل الكلام ، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة ، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة " . (١)

وفي عام ٥٨٤ " ثار اثنا عشر رجلا في القاهرة ونادوا يا آل علي ، يا آل علي ، ولكن محاولتهم أخفقت ، وكوتب السلطان بذلك وهو محاصر صفد ، وكان على بابه جماعة من وفود المصريين فاهم نأهمه الأمر وازعجه وتبرم بمن على بابه منهم ودخل عليه القاضي الفاضل فأخبره بذلك ، فقال يجب عليك ان تشكر الله على هذه النعمة ، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك ، أليس لم يلب دعوتهم احد وانه لم يكن لهم من يمدهم ، فطب بذلك نفسا وتحقق زيادة منزلتك عند الله تعالى ، فقال له السلطان ، كان الملوك قبلي تخافهم الرعية وتهرب منهم ، وتتوقع سطوتهم ، ورعيتنا قد تكاثروا علينا واضجرونا وملونا ، واذا ركبنا تعاوروننا بالقصص ، فقال له القاضي الفاضل ، أنت اولى الناس بشكر هذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب القصر واشياعه ، وخدمه واتباعه ، وامراؤه وخواصه ، وما منهم احد الا ويرتع الخلق في رياض انعامه ، وكان بالشام والبلاد الشرقيه في كل بلد وال وصاحب ، له على اهله نعم ، وفي كل قطر ملك يلوذ اهل ذلك القطر به ، وبذا اصبحت اليوم سلطان الجميع ، وقد رد الله سبحانه آمال الكل اليك ، وجمع المتفرقين على بابك . فلا يجدون لهم بعد الله — الا جودك وكرمك . فاغرورقت عينا السلطان بالدموع وشكر الله على احسانه اليه وآلى الا يرد قاصدا ، ولا يخيب وافدا " . (٢)

---

(١) ابن تغريبردى : ٦ ، ١٦١ — ١٦٢

(٢) ابن واصل : ٢ ، ٢٧٧

وكان واسطة الناس لدى السلطان يتشفع دائما بهم لديه ويطالبه بالاهتمام بأمرهم ومساعدتهم واعطائهم حقوقهم ، ويحذره من مغبة الاختلال بأمورهم . ذكر في احدى رسائله الى العماد قوله " بلغني انه استدعي بعمل أوراق برواتب الناس التي يأخذها الفقير مخروفا والغني تشريفا ، فذروا الناس يرزق الله بعضهم من بعض ودعوا لهم ما استكدى وخذوا ما (استنفيض) واعطوهم من قليل ما عندكم يعطكم الله من كثير ما عنده . واعلموا ان العطايا تجارة مربحة ، واني لاملق فأتاجر الله بالصدقة . وقد قال رسول الله (صلعم) لعائشة لا توعي فيوعي الله عليك ، وطالما خذل الملوك الاولون بالشح ونصر سلطاننا بالكرم " وطالما أعطى دينارا فأعطاه الله قنطارا ، ومنح فدنا ففتح الله علينا مدنا فالله الله في هذا الذكر ، وامحه يا كاتب من طريق الفكر ، وازحمه بمناكب المهمات التي تحطمه ، واكبحه ببرة اللسان التي تخطمه ، واطوه كما طويت صحف ابراهيم وموسى ". (١)

وكل ذلك اكسبه المحبة وكثر عارفي فضله والمتحرمون بحماه . وزاده امعانا في هذه الناحية انه قلما كان يسمح للبغضاء الفردية بأن توجه احكامه على الناس أو تسيطر على علاقاته بهم ، وقصته مع القاضي كمال الدين الشهرزوري توضح ذلك ، فقد كان القاضي كمال الدين " متمكنا زمن نور الدين ، ولما تملك صلاح الدين كتبت قصص كثيرة فيه ونسب الى أمور . وقيل أن القاضي الفاضل كان يكره كمال الدين فأدى القصص الى السلطان في كمال الدين في اثناء الطريق فلم يصل السلطان الى الكسرة الا وقد حصل عنده من كمال الدين شيء مع ما قيل انه كان لا يحبه من ايام نورالدين .

---

(١) الفاضل من كلام الفاضل

فاجتمع اصحاب كمال الدين وأشاروا عليه بالخروج لتلقي السلطان فأبى جريا على ما ألفه في ايام نور الدين من تردد الناس اليه وعدم تردده الى الناس . فلما كان ليلة دخول السلطان دمشق تحزب اصحاب كمال الدين عليه وقالوا ، هذا السلطان من الأصل لا يحبك ومدبر دولته القاضي الفاضل كذلك ، واعداؤك قد تحزبوا عليك ، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زال بزوال دولة نور الدين والسلطان بكرة غد يدخل البلد ، وقد دخل القاضي الفاضل البلد الليلة ونرى ان تمشي اليه ، فأظهر تألما كثيرا لذلك فألزم وربما حلف عليه فمضى ومعه اثنان احدهما ولده والآخر بعض من اشار عليه ، وفي ذهنه انه من حين يقبل على دار الفاضل يخرج لتلقيه فقعد على الباب زمانا طويلا ليؤذن له ، فأما الرجل الذى كان معه وأشار عليه فانه حرب حياء من القاضي كمال الدين ، وصار كمال الدين وولده فخرج الطواشي وذكر ان الفاضل نائم فقام كمال الدين وعاد الى داره في اسوأ حال . وسرى القاضي الفاضل في اثناء الليل لتلقي صلاح الدين وجاراه الكلام حتى انتهى الى ذكر كمال الدين فقال ، يا خوند هذا رجل معظم في العلم والسؤدد ، وافعال نور الدين عند الناس مسددة وكان منها تعظيم هذا الرجل ، وقالبلد ما ينسب اليه كذب ، وأما ما ذكر من كثرة دخله فهو وان كثر دون كثير من امراء المملكة ولعله أحق ببيت المال وامواله من كثير منهم ، فالذى اراه تعظيمه وكذا وكذا ، وعاد الى البلد مصبحا قبل دخول صلاح الدين وتوجه الى دار كمال الدين فجلس على الباب وطلب الاذن ، فلما دخل الخادم ليستأذن كمال الدين عليه مضى ولم يلبث علما منه بأن كمال الدين سيجازيه على عدم خروجه له ولا

يخرج لقوة نفس كمال الدين ، فكان كذلك ، دخل الخادم الى كمال الدين فاعتل لعلة ولم يخرج فخرج الخادم فلم يجد الفاضل ثم لما عبر السلطان البلد وبدأ بالجامع فصلى فيه فقيل ان الفاضل أخذه من الجامع وجاء به الى دار كمال الدين وصارت له اليد البيضاء عند كمال الدين بهذه الواقعة وتصادقا " . (١)

ومع ما كان لديه من رفق في الشؤون العامة ومن تسامح في الهنات فقد كان ذا هيبة بالغة في النفوس ، حتى كانت هيبته هذه مشهورة معروفة ، وحتى ان اصدقاءه اقرب الناس اليه ، لم يكونوا يجرؤون ان يعيدوا عليه السؤال اذا رأوا منه اعراضا ، (٢) وروى ان العزيز عثمان حاكم مصر ، أصيب بضائقة مالية فألح عليه اصحابه في الاقتراض من القاضي الفاضل ، فاستدعاه الى مجلسه ، بمنظرة من دار الوزارة مشرفة على الطريق ، ولما عاين القاضي الفاضل استحيا منه ، ومضى الى دار الحرم احتراما له من مخاطبته في القرض . ولم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من دار الحرم . (٣) وقد ذكر الشعراء هذه الهيبة ، فقال ابن سناء الملك :

---

(١) السبكي : ٤ ، ٢٦

(٢) ابن سناء الملك : ٢٢٩ — ٢٣٠

(٣) المقريزي — السلوك ج ١ ، ١٢٨

أخذت بمجلسه المهابة حقها   فترى البرئ لديه مثل الجاني [1]

ورافقت هذه الهيبة فيه خلتان بارزتان : حدة تعتريه أحيانا فتصرفه عن التساهل حين يكون التساهل ضارا " وقصته مع اخيه — وهي التي مرت في صفحات سابقة تصور هذه الصلابة الحادة " • وميل الى الجد يخيل الى الناس انه لا يعرف معه معنى المزاح والدعابة • ومن امارات حدته هذه الرسالة التي كتبها للسلطان في وفاة عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد " • وما ربك بظلام للعبيد ، فقد كان عفا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهق انفسهما وجماعة لا تحصى •

من ذا يسر بذنبه   والدهر لا يغتر به

وهذا البيت (بيت ابن المسلمة) عريق في القتل وجده هو المقتول بيد البساسيرى في وقت اخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر ، فهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة ، فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال ابن دريد (ابى الموت الا الصم) والابيات المولى يحفظها وهي في الحماسة وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشهادة لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله • قال الله سبحانه ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله •

---

(١) ابن سناء الملك ، ٢٧٩

ان المساءة قد تسر وربما كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس .
وقال الفاضل في ذلك من نظمه .

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء (١)

وأما جده ، فقد كان ينأى به أحيانا عن مجالس الهزل والترويح
عن النفس ، وخصوصا اذا اقترن هذا الجد لديه بمعاني التقوى والتدين . ذكر
" ان صلاح الدين أخرج له من القصر من يعاني خيال الظل ليفرجه فقام القاضي
الفاضل ، فقال له صلاح الدين ، ان كان حراما فما يحضره ، وكان حديث العهد
بخدمته قبل ان يلي السلطنة فما آثر انه يتكدر عليه فقعد الى آخره . فلما
انقضى ذلك قال له السلطان ، كيف رأيت ذلك ، فقال ، موعظة عظيمة ، رأيت
دولا تمضي ما كأنها كانت ودولا تأتي ، ولما طوى الازار طي السجل للكتاب
اذا بالمحرك واحد . فأخرج هذا الجد في هذا الهزل " . (٢)

---

(١) ابو شامة : ١ ، ٢٧٨
(٢) الغزولي : ١ ، ٧٨ — ٧٩

ولعل تدينه كان اكبر الأمور الموجهة لأعماله واكثر العناصر بروزا في شخصيته ، ويتمثل هذا التدين لديه في الاغضاء والصفح والحلم والستر وقراءة الأوراد ومداومة الصلاة والصيام وكثرة الصدقات والوقوف الكثير على وجوه الخير ومساعدة الغرباء ووقف بعض امواله لفكاك اسارى المسلمين ،[١] والاكثار من الحج ،[٢] وبناء القيساريات كقيسارية الفاضل ، والمدرسة الفاضلية .[٣] وكان متقشفا لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، كارها لمظاهر السيادة ، فلا يرافقه في روحاته وغدواته سوى غلام وركابي ،[٤] هذا على انه كان قادرا ان ينتحل أبهة الغنى ومظهر النعمة والترف ، فقد كان له دخل كبير قدره السبكي بخمسين الف مثقال من الذهب ، وكان قد استغل ثروته في ضروب التجارات ،[٥] هذا عدا عن ضيعة اهداها له السلطان تسمى ترنجه كانت تغل اثنى عشر الف دينار في السنة .[٦] وكان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق وبستان الخشب في القاهرة ، وكان يمد مصر من ثماره واعنابه ، ولم تزل الباعة في عهد المقريزى ينادون على العنب بقولهم : " رحم الله الفاضل يا عنب " .[٧] ولكنه على تقشفه في حياته الذاتية لم يكن يضن بالمال على المنشآت العامة والمساجد والمدارس .

---

(١) السبكي : ٤ ، ٢٥٣ ، سبط ابن الجوزى : ٨ ، ٣٠٥
(٢) ابن الاثير : ١٢ ، ٦٧
(٣) المقريزى : ٣ ، ١٤٥
(٤) السبكي : ٤ ، ٢٥٣
(٥) المصدر السابق ، ٢٥٣ — ٢٥٤
(٦) الحنبلي : ٤ ، ٣٢٥
(٧) المقريزى : ٤ ، ٨٩

وكان له تهجد بالليل لا يخل به مع اكثاره من تشييع الجنازات وعياده المرضى ، وعادة في زيارة القبور لا يقطعها ، (١) حكي عنه " انه دخل يوما لزيارة الشافعي فوجد الفقيه الجنوشاني يلقي الدرس على كرسي ضيق ، فجلس على طرفه وجنبه الى القبر فصاح الشيخ فيه قم قم ، ظهرك الى الامام فقال الفاضل ، ان كنت مستدبره بقالبي ، فأنا مستقبله بقلبي فصاح فيه أخرى وقال ما تعبدنا بهذا فخرج وهو لا يعقل " ، (٢) والحكاية تدل على اهتمامه بزياره قبور الائمة والصالحين كما تدل على كبحه لغضبه اذا بلغ الغضب به حدا بعيدا .

وكان متعففا في حياته الخاصة ينفر من الرذيلة كشرب الخمر والانهماك في الملذات ، ويبني علاقاته بأصدقائه على أساس من هذا الفهم ، قال له صلاح الدين يوما ، لنا مدة لم نر فيها العماد فلعله ضعيف ، امض الى داره ، وتفقد احواله ، فلما دخل دار العماد وجد اشياء انكرها في نفسه ، فقد أتى مجلس شرب وطيب وورد ورائحة خمر وآلات طرب فأنشده :

ما ناصحتك خبايا الود من رجل ... ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتي فيك تأبى ان تسامحني ... بأن اراك على شيء من الزلل (٣)

---

(١) السبكي : ٤ ، ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ، ٢٥٣

(٣) الصفدي : ١ ، ٩٤

لقد فرضت عليه حياته السياسية الغالبة هذا الضرب من الجد الكثير ، واقترن فيه الجد بالتدين ، ذلك هو الطابع العام لشخصية رجل كالقاضي الفاضل مسؤول يحس بمسؤوليته احساسا دقيقا ، فالحزم من لوازمه الضرورية ، وبحسب الرجل ان يكون في مثل موقفه ، أي سياسيا مقصودا ممدحا ينظر الناس اليه ويعدون عليه حركاته وسكناته ، ويتوقعون منه الجود والعون ، بحسبه ذلك — ان كان صالح الأهداف — حتى يكون في احواله العامة مستقيما — الى حد يبلغ التزمت احيانا — في التدقيق والتوقي والحذر . ومع ذلك كله لم يكن القاضي الفاضل بعيدا عن قلوب عارفيه ، فان اخلاصه كان يتجلى في اعماله ، وكان محبا لمساعدة قاصديه حافظا لعهود اصدقائه يلبي حاجة المحتاجين ، ويشجع صاحبه على النظر في مظالم المتظلمين ، وهو غير مغلق النفس تماما عن الظرف الذي يمحو آثار التشدد من النفوس ، ويعتمد ظرفه في الأكثر على سرعة بديهته وعلى لون من الدعابة الكلامية يتصل باجادته للتلاعب بالألفاظ . فقد روى أن العزيز ، هوى قينة شغلته عن مصالحه ، وبلغ ذلك والده ، فأمره بتركها ومنعها من صحبته ، فشق ذلك عليه ، وضاق صدره ، ولم يجسر ان يجتمع بها ، فلما طال ذلك بينهما سيرت له مع بعض الخدم كرة عنبر ، فكسرها ، فوجد في وسطها زر ذهب ، ففكر فيه ، ولم يعرف معناه ، واتفق حضور القاضي ، فعرفه الصورة ، فعمل القاضي الفاضل في ذلك بيتين وأرسلهما اليه ، وهما :

اهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر دقيق اللحام
فالزر في العنبر معناهما زر هكذا مستترا في الظلام [١]

وروى عن ابن سناء الملك قوله " خرجنا للقاء القاضي الفاضل رحمه الله في بعض قدماته من الشام فلقيناه وعدنا ، فلما كنا في سطح الخشي عنّ ظبي للموكب ، فركض خلفه المكين ابن حيّون طامعا ان يلحقه ، وكان مثل هذا الفعل لا يليق به لانّه ليس من اهله ، والصدر المتلقى لا ينبغي ان يغلط بين يدى مثله ، فعجب الفاضل منه ، واتفق ان فاته الصيد الذى طلبه ، وسقطت مقرعته من يده ، ورجع الى الموكب وعليه انكسار الفوات وخجل الغلط ، فارتجل الاجل الفاضل :

يا عاديا عدو السفيه ، وعائدا عود الحليم
ضيعت مقرعة وعدت سميها من غير ميم [٢]

ويمكن القول في اجمال ان تدينه كان منبعا لجوانب الخير فيه ، وعاصما له عن التورط فيما ينفر الناس منه ، ومرسخا للتواضع الذى يزين نفس ذى المركز العظيم . ولذلك لم يكن البون فيما يمدحه به الشعراء — بين حقيقة واقعة وأخيلتهم — بعيدا ، وانما كانوا يتحدثون عن صفات حقيقية فيه ، دون حاجة الى تخيل او تزيد ، فاذا سمعنا ابن سناء الملك يقول فيه :

---

(١) البيساني ، ١٠٦
(٢) الازدى : ٢ ، ١٨٣

في الصوم والصلوات اتعب نفسه　　ضمان راحته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن آثامها　　ثقة بحسن مآلها ومآبها
فسواء تسبيه الملاح بحبها　　وسواء تصبيه الطلا بحبابها
صوامها قوامها علا مها　　عمالها بذالها وهابها (١)

اذا سمعنا هذا ادركنا ان الصدق الأخلاقي في هذه الأبيات وضع في موضعه ، وان الصفات التي ذكرها الشاعر كانت هنالك على التحقيق •

ولو وصلتنا معلومات عن حياته العائلية لاستطعنا ان نضيف عناصر أخرى الى شخصيته او نقوى الشواهد على العناصر التي اكدتها الأخبار والروايات • وكل ما نعرفه في هذه الناحية انه تزوج ورزق بنين وبنات نعرف منهم ابنة له ، وابنا جرى على اعراق أبيه هو القاضي الاشرف بهاء الدين ابو العباس احمد ، فكان كبير المنزلة عند الملوك مثابرا على سماع الحديث وتحصيل الكتب • اما عن شخصية القاضي الفاضل بين زوجه وأولاده فالأخبار لا تسعفنا عنها بشيء في هذه الناحية •

على اننا نعلم يقينا ان القاضي الفاضل قد خلق في بيته جوا أدبيا علميا ، لشدة شغفه بجمع الكتب ، فكان يرسل في احضار أي كتاب يسمع به مهما يبلغ ثمنه ، او كان يطلب ان ينسخ هذا الكتاب اذا لم يتمكن من شرائه ، كتب مرة الى العماد يقول

---

(١) ابن سناء الملك ، ٥٩ — ٦٠
(٢) ولد عام ٥٧٣ هـ في القاهرة — وتوفي عام ٦٤٣ هـ • "ابن خلكان ، ٢ ، ٣٣٧ " وسمع بافادة أبيه وبنفسه الشيء الكثير وخرج على الشيوخ وكتب الكثير • توفي بدمشق " الصفدي ، ٢ : ٢٠٦ " •

" وسمعت انه ورد الى دمشق كتاب فيه رسائل الباخرزى ، فان امكن شراؤه والا فليمكن نسخه " . (١) وكون لنفسه مكتبة كبيرة بلغت مائة الف واربعة وعشرين الف كتاب قبل وفاته بعدة عشرين سنة ، أخذ قسماً كبيرا منها من خزائن الفاطميين عند ما استولى عليها صلاح الدين ، (٢) وقسما آخر من خزانة آمد عند ما فتحها صلاح الدين ، (٣) وقد وصل به ولعه بالكتب ان اشترى مصحف عثمان بن عفان ، المكتوب بالخط الكوفي بنيف وثلاثين الف دينار ، وكان يحتفظ بنساخ ومجلدين لا يتوقفون عن العمل (٤) ومع اهتمامه الزائد بالعلوم الاسلامية وكتبها ، فانه لم يظهر اهتماما بالعلوم الدخيلة . فقد عرضت عليه مجموعة كتب نفيسة خاصة بالطبيب الموفق ابن المطران ردها دون ان يأخذ منها شيئا . (٥) ولعله كان لديه شئ من الاطلاع على العلوم الدخيلة الا انه حارب الفلسفة والمشتغلين فيها ، فقد كتب بيده رسالة عن صلاح الدين الى ابنه الظاهر في حلب يطلب منه فيها القضاء على شهاب الدين السهروردى ويقول فيها " ان هذا الشهاب السهروردى لا بد من قتله ، ولا سبيل انه يطلق ، ولا يبقى بوجه من الوجوه ." (٦) ولو انه اراد ان يشفع لشهاب الدين السهروردى لدى السلطان ويوقف قتله لفعل الا انه كان ولا شك متأثرا بالوضع السياسي في البلاد ،

---

(١) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ٢٦٦
(٢) المقريزى : ٢ ، ٣٦٧
(٣) سنة ٥٧٩ هـ ، ابو شامه : ٢ ، ٣٩
(٤) المقريزى : ٢ ، ٣٦٦
(٥) ابن ابى اصيبعة : ٢ ، ١٦٧
(٦) المصدر نفسه ، ١٦٧

فقد كان المسلمون في حرب دينية طاحنة ، وكان هدف الحكام جمع شمل المسلمين وتثبيت عقائدهم لا تبديدها ، ولذلك نشأ في نفوسهم يومئذ شئ من الفرق والخشية من كل موضوع قد يظن فيه التحيف على الدين ، وهذا شيء طبيعي في أيـام الحروب الدينية ، ولذلك حاربوا الفلسفة والمشتغلين فيها كي لا تفسد ، في ظنهم ، عقائد الناس . ومع هذا فانه طلب من العماد الاصفهاني ان يعرب له كتـاب كيمياء السعادة للغزالي من الفارسية . (١)

ومن كان لديه مثل هذا الاهتمام البالغ بشؤون الكتب لم يكن من السهل ان يتصور الدارس مراحل التطور في ثقافته ، او يحكم على المدى الذى بلغه فيها ، فقد كان كل محصول القاضي الفاضل قبل ان يرحل الى مصر حفظه للقرآن الكريم ولحماسة أبي تمام ، ثم تعلم فن الكتابة على يد اثنين من كبار كتاب الديوان هما بن الخلال الذى دربه في صنعة الكتابة بحل محفوظه للقرآن والحماسة ، وابن قادوس الدمياطي ، (٢) الذى لم يكن يجد عنده الوقت الكافي للدراسة عليه فكان يرافقه في ركوبه من القصر الى منزله بمصر ومن منزله الى القصر يتباحث معه في فنون الكتابة والادب والشعر . (٣) كذلك اتصل باثنين من كبار محدثي ذلـك العهد ، هما ابو القاسم بن عسـاكر ، (٤)

---

(١) ابو شامة ١ : ٢٠
(٢) كافي الكفاة ابو الفتح محمود الدمياطي ، كان كاتب الانشاء بالحضرة المصرية ، توفي سنة ٥٥٣ " ابن ميسر ٢ : ٩٧ ، وللقاضي الفاضل قصيدة طويلة في مدحه ، " البيساني ، ١٧٥ " .
(٣) ابو شامة ١ ، ١٠٣
(٤) علي بن ابي محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر ، من اعيان فقهاء الشافعية ، اشتهر بالحديث ، توفي عام ٥٧١ هـ " ابن خلكان ٢ : ٤٧١ " .

محدث دمشق ، وابو الطاهر السلفي[1] محدث الاسكندرية ، وأخذ عنهما . وقد صرحت الاخبار انه كان ضعيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدربة كانت توجب لسه قلة اللحن . وقد ظهرت آثار هذه الثقافة ذات الطابع اللغوى الديني البياني في رسائله وشعره ، واذ كان هذا هو كل ما لدينا من الروايات عن ثقافته فلا بد من ان نفترض — دون خطأ كثير — انه كان " انموذج المثقف " في عصره ، وان شغفه بجمع الكتب لم يكن تزينا او تكثرا ، وانما كان كثير الاطلاع والقراءة ، ولعله وهب ذاكرة عجيبة وحضورا ذهنيا فائقا ، فان طريقته في الاملاء — وقد تقدمت الاشارة اليها — مما يدل على وعي بالغ وحافظة قوية .

---

(١) احمد بن محمد السلفي ، احد حفاظ الحديث المكثرين ، شافعي المذهب ، اقام بالاسكندرية وحدث فيها حتى وفاته عام ٥٧٦ هـ . " المصدر السابق ١ ، ٨٧ " .

شخصيته من حيث آثارها في بيئته

شخصيته من حيث آثارها في بيئته

مثل هذه الشخصية ذات المسؤوليات العريضة لاتقف بها خصائصها عند حد الذات ، بل تكون بعيدة الاثر متشعبة التأثير في حياة العصر نفسه بما تملكه من صولجان السياسة وقلم التدبير والتحبير ، وما يتيحه لها الثراء العريض — هي اذن شخصية الذي يملك ان يقول ويعمل معا ، وكذلك كان القاضي الفاضل ، ومن ثم ترك في بيئته أثرا بعيدا عميقا واسعا :

١ — فالقاضي الفاضل السياسي كان حقا ذا أثر في توجيه سياسة عصره وفي سند صلاح الدين ، الا انه أخفق في سياسة السلم الى حد ما ، فبعد مجاهدته مع صلاح الدين ليحرر البلاد اخطأ في انه وافقه على قسمتها بين ابنائه . والحقيقة انه يجب ان لا نحمله جميع المسؤولية لأن صلاح الدين كان يريد هذا . ولكن المسؤولية ايضا ايقظت لديه الحس التاريخي ، على نحو ما ، فاضطلع بتدوين هذا التاريخ فيما كان يسميه المتجددات ، والمياومات ، وهي مذكرات سياسية عامة ، كان شديد الاهتمام بها ، ولو وصلتنا كاملة لكانت من أدق الصور التفصيلية للأيام الصلاحية وما بعدها حتى وفاة القاضي الفاضل — من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصاديه . وهذا نموذج منها للتمثيل : " قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، في شوال قطع النيل الجسور واقتلع الشجر وغرّق النواحي ، وهدم المساكن ، وأتلف كثيرا من النسال والأطفال ،

وكثر الرخاء بمصر، فالقمح كل مائة اردب بثلاثين دينارا والخبز البايت ستة ارطال بربع درهم والرطب الامهات ستة ارطال بدرهم والموز ستة ارطال بدرهم والرمان الجيد مائة حبة بدرهم والحمل الخيار بدرهمين والتين ثمانية ارطال بدرهم والعنب ستة ارطال بدرهم . وآل امر اصحاب البساتين الى ان يجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن اجرة جمعه وثمر الحناء عشرة ارطال بدرهم والبسرة عشرة ارطال بدرهم من جيده والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم ، وما في مصر الا متسخط بهذه النعمة . قال — ولقد كنت في خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه فرأيت الماء مملوءًا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا والنخل مملوءًا ثمرا والمكشوف من الارض مملوءًا ريحانا وبقولا ثم نزلت فوصلت الى المقس فوجدت من القلعة التي بالمقس الى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الارض فلا يدري الماشي اين يضع رجله متصلا عرض قللك الى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة من مراكب الغلة ما قد ستر سواحله وأرضه . قال — ودخلت البلد فرأيت في السوق من الاخباز واللحوم والالبان والفواكه ما قد ملأها وهجمت منه العين على منظر ما رأيت قبل مثله . قال — وفي البلد من المعاصي ومن الجهر بها ومن الفسق بالزنا واللواطومن شهادة الزور ومن مظالم الامراء والفقهاء ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر في ليله ممن يقع عليه اسم الاسلام ومن عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله فلا حول ولا قوة الا بالله . وظفر بجماعة مجتمعين في حارة الروم يتغدون في قاعة في نهار رمضان

فما كنموا وبقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب الخمرفي ليل رمضـــان فما أقيم فيهـم حد " . (١)

وسجل لعصره في رسائله التاريخية وفي ثنايا عهوده وسجلاته .

فقد كان يراقب الأحداث عن كثب ويساهم في بعضها ، كما كان يشهد بعض المعارك الحربية الدائرة بين العرب والفرنج ويصورها وهو ما زال في أرض المعركة بحيث يصف كل ما يدور حوله بشيء من الاسهاب كقوله في فتح حصن بيت الأحزان مثلا : " وكـــان مبنيا على صهريج لما فتح المســلمون الحصن رموا فيه ما يناهز الف قتيل ، ودابة محرقة بالنار ، فما شغلت سدت عرضته ولا ملأت حفرته ، وكان فيه نحو الف زردية ، والمقاتلة ثمانون فارسا بغلمانهم ، وخمسة عشر مقدما للرجال ، مع كل مقدم خمسون رجلا ، هذا الى الصناع ما بين بناء ومعمار ، وحداد ، ونجار ، وصيقلي وسيوفي وصناع انواع الأسلحة . وكان به من اسرى المســلمين ما يزيد على مائة الف رجل نزعت القيود من ارجلهم وجعلت في ارجل الفرنج ، وكانت فيه اقوات لعدة سنين ، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع الى حين . ولما قوتل اول يوم هوجم حوشه وفيه جماعة من المقاتلة ، فضربت رقابهم ، وأخذت دوابهم ، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات وحشيت بالنيران ، وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان ، ولم تزل النار توقد ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد ، الى ان تمكنت النقوب وحشيت بالأحطاب ، واطلعت فيها النيران في يوم الخميس ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت الأبرجة فهي يومئذ واهية .

---

(١) المقريزى ج ٣ ، ٣٨

وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ما حل ببنيانه وما نزل من البلاء بأصحابه واعوانه . ولما وصلت النار الى جهته التي نفسه في خندق نار صابرا على حرها . ففي الحال نقلته هذه النار الى تلك النار . ولما أخذ اسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين ، وما يقصر عدتهم عن مثلها ، توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره وازالة ضرره " . (١)

ومن هنا تأتي اهميته في التاريخ ، فهو في الدرجة الأولى شاهد عيان ينقل لنا مايرى ويتوخى في الوقت ذاته صدق الأخبار التي يسمع بها قبل نقلها مما يدل على امانته التاريخية التي عبر عنها بقوله " كذلك المملوك امسك حين كانت الأخبار بجانبيه مشتبهة ، والحقائق لديه غير متوجهة " . (٢) كما ان نقلـــه للأحداث كان مبنيا على شئ من التعليل والتفسير الديني ، فالله مسيّر الأحداث ومكيفها ينصر من يشاء ويهزم من يشاء " . "ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان ، ولا فلان الذى يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان . فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها . وانما النصر من عند الله ، ولا نأمن ان يكلنا الله اليها ، والنصر به واللطف منه ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا انها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ، ولكن في الطريق عائق خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق " . (٣) ولعل من عيوب القاضي الفاضل كمؤرخ اهتمامه الزائد بالاسلوب ، ومبالغته في بعض الأحيان ، الا ان هذا لا يمنع من اعتبار رسائله من مصادر دراسة الفترة المعتمدة التي لو جمعت بأكملها لأعطت خير صورة عن الفترة .

---

(١) ابو شامة ٢ ، ١٣
(٢) القلقشندى ٦ ، ٥١٦
(٣) ابن كثير ١٢ ، ٣٣٩

٢— والقاضي الفاضل الشرف الخير الذى يملك القدرة على الانشاء والتعمير بحكم مركزه وثرائه وحبه للخير ، كان يهتم بالمنشئات العامة ، وبخاصة المدارس فانشأ المدرسة الفاضلية التي وقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للاقراء [1] اقرأ فيها الامام ابو محمد الشاطبي [2] القرآن الكريم وقراءته والنحو واللغة .[3] كما اقرأ فيها تلميذه محمد بن عمر القرطبي وغيرهما . ورتب فيها فقيها لتدريس فقه المذهبين ، ووقف بها مجموعة كبيرة من الكتب في العلوم يقال انها كانت مائة الف مجلد . [4] ودار الحديث الفاضلية خصصها لتدريس الحديث ومسجدا بدمشق . [5]

ووفقا لذلك ايضا كان شديد الاهتمام بالعلماء والرعاية لشؤونهم وتدبير مصالحهم ، ذكر الفقيه اسماعيل بن صالح القفطي خطيب عيذاب [6] انه لما فتح السلطان الساحل ارتحل عن عيذاب لزيارة بيت المقدس ، ولما مر بالشام أعجب بمناخها ومناظرها وتمنى المقام بها فقصد القاضي الفاضل وسأله ان يتوسط له لدى السلطان ليوليه خطابة قلعة الكرك فكتب له كتابا تلطف فيه . [7]

---

(١) المقريزى : ٢ ، ٣٦٦

(٢) ابو القاسم بن فيره الرعيني ، أندلسي الاصل ، كان ضريرا ، دخل مصر عام ٥٧٢ وسمع الحديث عن السلفي ، توفي عام ٥٩٠ هـ "بدوى ، ٩٨"

(٣) المصدر نفسه ، ٩٨

(٤) المقريزى : ٢ ، ٣٦٦

(٥) بليدة على بحر القلزم وهي مرسى المراكب القادمه من عدن الى الصعيد الاحمر

(٦) القفطي : ١ ، ٢٩٨

(٧) الصفدى : ٤ ، ١٧

كما أبدى اهتماما كبيرا بالطبيب موفق الدين البغدادى [١] عندما وفد عليه في عكا ولبى طلبه في تأمين عمل له في مصر ، وأوصى به وكيله فيها ابن سناء الملك وكان يرسل كل عشرة ايام رسالة الى وكيله بمصر مخبرا بتطورات الموقف بين المسلمين والفرنج وموصيا بموفق الدين البغدادى [٢] وكان يقوم برعاية ابي عمران موسى بن ميمون القرطبي [٣] بالرغم من اشتغاله بالفلسفة ولعله لم يتسبب في اضطهاده كما فعل بالسهروردى لأن الأخير كان يهوديا . وبالفقيه النحوى شيث بن ابراهيم القفطي ويقبل شفاعاته في حق من يشفع فيه [٤] وبأبي القاسم الشاطبي الذى اشترط عليه شروطا عديدة قبل العمل في مدرسته ، وافق عليها جميعها وانزله على الرحب والسعة . [٥]

---

(١) موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، بغدادى المولد اتصل بصلاح الدين والقاضي الفاضل وأقام يدرس الطب في الجامع الأزهر في القاهرة وانتقل في آخر حياته الى حلب ، " ابن ابي أصيبعة ٢ ، ٢٠٧ " .

(٢) ابن ابي أصيبعة : ٢ ، ٢٠٢

(٣) طبيب يهودى الأصل ، كانت له معرفة بالفلسفة . اقام في مصر زمن صلاح الدين ثم انتقل لخدمة ابنه الأفضل " ابن أبي أصيبعة ٢ ، ١١٧ ، ٢٠٥ " .

(٤) من أهالي قفط بمصر ، درس النحو وصنف فيه ، توفي عام ٦٠٠ هـ " القفطي : ٧٣ — ٧٤ " .

(٥) بدوى ، الحياة العقلية ، ٩٨

٣ـ والقاضي الفاضل الكاتب الشاعر لم يكن فحسب نموذجا يحتذى في الكتابة ولا كان شاعرا منقطعا لنفسه فحسب ، بل كان موجها للحركة الشعرية والحركة الأدبية في عصره ، وكان ذلك يتم على صور عدة ، منها ان شخصه كان " مركز الدائرة " لكثير من أدب هذا العصر ، فمداحوه كثيرون ، والكتب تؤلف باسمه وترفع اليه في شتى الموضوعات ، وهو لا يكف عن ان يطلب من المؤلفين ان يكتبوا في هذا الموضوع او ذاك ، وفي مجلسه تدور الأحاديث والمباحثات التي يلتقي حولها المثقفون ، وهو " الراعي " الذى يهتم بأمر الأدباء ويقربهم من السلطان ويحسن اليهم ويطلب لهم المساعدات ويوجد لهم الوظائف . فمن ألفوا له محمد بن هبة الله البرمكي الحموى — الامام تاج الدين ، ارجوزة في الفرائض سماها روضة المرتاض ونزهة الفراض قال فيها ، جمعتها لجامع الفضائل ، الأوحد الأجل الفاضل محي موات الفضل ذى الجد العلي عبد الرحيم بن ابي المجد علي ، أهدى اليه قطرة من بحره ، اذ كل ما أنظمه من نثره

وهو الذى اجمع كل عالم ... في عصرنا من ناثر وناظم
بأنه الحبر النسيج وحده ... في علمه ودينه وزهده (١)

وصنف له الأسعد ابن مماتي تصانيف عدة باسمه . (٢)

---

(١) السبكي : ٤ ، ١٩٦

(٢) ياقوت : ٦ ، ١١٣

وكانت مجالسه مدارا للنشاطين الفكرى والادبي ، وملتقى لشعراء العصر وكتابه ومحبي الادب فيه ، يجتمعون للحديث والمناقشة في موضوعات وفنون مختلفة ، ورئيس المجلس — القاضي الفاضل — يشاركهم ابحاثهم ويدير دفة نقاشهم بكل حكمة ولباقة ويطلق على بعضهم القابا مختلفة حسب اسهامهم في المجلس — فيسمي الاسعد بن مماتي مثلا بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه (١) ويفتح المجال للادباء الموجودين عنده لنقد بعضهم ، ذكر ان الادباء كانوا مجتمعين عنده في احدى المناسبات ، وكان العماد الاصبهاني حاضرا عنده ، فلما انفصل قال الفاضل للجماعة : بم تشبهون العماد ، وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام فاذا اخذ القلم أتى بالنثر والنظم فكلهم شبهه بشيء فقال ، ما أصبتم ، هو كالزناد ظاهره وباطنه فيه نار . (٢) ويفتح ابوابا للنقاش يختبر فيها ذكاء المساهمين فيه وثقافتهم ومدى مقدرتهم على النقاش ، تحدث علي بن ظافر الأزدي عن احد مجالسه بقوله " دخلت يوما على القاضي الفاضل رحمه الله فجرى في مجلسه من فنون المذاكرة ما أداه الى ان قال ، كان الرشيد احمد بن الزبير قد اجتمعت فيه صفات وأخلاق تقتضي ان تجود معاني الهجاء فيه . من ذلك انه كان اسود ولا يزال يدعي الذكاء ، وان خاطره من نار فقال فيه ابن قادوس :

---

(١) المقريزى : ٣ ، ٢٦٠

(٢) الصفدى : ا/ ١٣٩

ان قلت من نار خـلقـ ـت وفقت كل الناس فهما

قلنا صدقت فما الذى اطفاك حتى صرت فحما

وأرسل الى اليمن ولقب علم المهتدين فقال فيه بعض الشعراء من قطعة يخاطب الخليفة :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود

يعني ان الاعلام السود انما تكون للعباسيين واعلام تلك الدولة بيض •
وتولى مطابخ الخليفة فقال فيه بعض الشعراء يخاطب الخليفة :

تولى على الشيء اشكالـه فتحسب هذا لهذا أخـا

تولى على المطبخ ابن الزبير تولى على مطبخ مطبخـا

وكان يناقر في سرق الشعر ويسرق المعاني فقال فيه ابن قادوس :

سلخت اشعار الورى جملة حتى دعوك الأسود السالخا

فأخذ الاسعد بن الخطـير يستحسن هذه القطعة فقلت له كما تقول
الا انـه لحن في قوله الأسود السالخ فانما يقال اسود سالخ وسام أبرص ،
فاللحن يقيم الوزن والصواب يكسره فهو بين خطتى خسف فأخذ في المشاغبة الى ان
قال من اين نقلت هذا ، نقـلت احضر شاهدى عندك الساعة كتاب الحيات من كتاب الحيوان

للجاحظ ، فقال ، الجاحظ ليس من اهل اللغة ، ونقله في هذا الموضع لا يسمع ، فقال الأجل الفاضل ، دع هذا فالصواب معه وهذا مجمع عليه ، ولكن عرّفنا كيف كان يصنع حتى ينظم المعنى ، فقلت يترك هذا الوزن وينظمه في وزن يستقيم عليه الصواب فقال انظمه لنا فقلت ارتجالا :

وسلخت اشعار البرية كلها حتى دعيت لذاك اسود سالخا

فقال مثلك يقول لذاك ، فقلت حتى دعاك الناس، فقال انما كنت أريد ان تنظمه أخصر من بيته ، ودخل عليه من انقطع طلبه لدخوله ، فلما سكن قال تعرف له وجها يذهب النقد عنه ويخلصه من الطعن عليه فقلت مولانا اعلم فقال انه حكي عن الناس تلقيبهم اياه بالأسود السالخ فكأنه لحن على الحكاية لا لأنه حكي عنه هذا فاستحسناه وان لم يكن صحيحا من الاعذار ، ثم خرجت فلقيت الأسعد بن عبد الرحمن بن شيت فحكيت له الحكاية فقال لما طلب منك اختصاره كنت تقول ، وقال على الفور :

وسلخت اشعار الورى فدعوك اسود سالخا (1)

وفي مجالسه كانت تتجلى المواهب الشعرية فينظم الشعر بديها وترتجل الأبيات في موضوعات مختلفة . ذكر الأزدي انه غنى بين يدى الملك العزيز د وبيت بالعجمية معناه انه جعل الليل برد دار (2) للحبيب ليحجب الشمس فاستحسن المعنى وأرسل الى وزيره الأجل نجم الدين ابي الفتح يوسف بن المجاور يأمره ان يصنع المعنى في شعر وان يأمر الشعراء بالعمل في ذلك فصنع بديها وأرسل اليه :

---

(1) الأزدي : ٢ ، ٢٠٠ — ٢٠٦

(2) حاجب

قال له الليل انصرف راشدا　　　فانه استخدمني بردار

ثم صنعوا بعده ممن مروا بباده ، وذكر الاسعد ابو المكارم اسعد بن الخطير قوله كنت عند الفاضل رحمه الله تعالى اذ دخل الوزير نجم الدين فأخبره بما طلب السلطان وأنشده ما صنع فقال الفاضل ، هذا معنى كنت نظمته قديما الا انـــي استخدمت بوابا فقلت :

بتنا على حال تسوء العدا　　　وربما لا يمكن الشرح

بوابنا الليل وقلنا لـــه　　　ان غبت عنا هجم الصبح

(قال الاسعد) ولم أكن صنعت شيئا فصنعت بديهيا :

قلت لليل عندما زارني البد　　　ر وأوجست خيفة للرواح

أنت ياليل برددار حبيبي　　　فتأهب لدفع صدر الصباح

قال فاستحسن الوزير القسم الثاني . (١)

وكانت مجالسه هذه مجالا لتعارف الادباء ووصلهـــم بالحكماء ، ذكر ان أول معرفة عز الدين فرخشاه بتاج الدين ابي اليمن الكندي جرت في مجالسه ،

---

(١) المصدر السابق ، ٢ ، ٧

والتقى بالعماد الاصفهاني [١] في حمص ، فمدحه العماد بأبيات منها :

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
أبصرت قسا في الفصاحة معجزا فعرفت اني في فهاهة باقل [٢]

فدخل الفاضل على صلاح الدين وعرفه بالعماد ثم قال " انا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة وغدا يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغني في الملك من عقد الملطفات وحل التراجم والعماد يفي بذلك ، ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره " .[٣] وأصبح العماد بعدها الكاتب الثاني لصلاح الدين بعد القاضي الفاضل . ووصل الفاضل بصلاح الدين عددا آخر من الشعراء والادباء من بينهم الخطير بن مماتي [٤] وأبو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعه [٥] وابن سناء الملك [٦] ، وشرف الدين محمد بن اسعد الجواني الحسيني . [٧]

---

(١) عماد الدين الاصفهاني ، الكاتب المشهور قدم الى الشام في عهد نور الدين ثم اتصل بصلاح الدين ، وكان يلازمه للكتابة اثناء غياب القاضي الفاضل ، " ابن خلكان : ٤ ، ٢٣٣ – ٢٣٥ " .

(٢) الاصفهاني : ١ ، ٣٧

(٣) ابو شامة : ١ ، ٢٥١

(٤) كان على ديوان الاقطاعات زمن الفاطميين ، ثم عمل وابنه الاسعد في الديوان الفاضلي " الاصفهاني ١ ، ١١٣ "

(٥) من الشعراء المصريين توفي ٥٩٢ " الاصفهاني ٥٦٠

(٦) كان يعمل نائب للقاضي الفاضل في ديوان الانشاء بمصر ، ودارت بين الاثنين رسائل عديدة . توفي عام ٦٠٨ هـ " ابن خلكان ٥ ، ١٢ ، ١١ " .

(٧) كان نقيب الاشراف بمصر وهو شيعي المذهب ، توفي عام ٥٨٨ " الاصفهاني ١ ، ١١٧ ، هامش ١ " .

فقد جرى ذكر بيت من شعر ابي الطيب فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاه وسأل القاضي الفاضل عنه فقال ، هذا فلان وعرفه بفضله ، فلما قام فرخشاه من مجلس الفاضل اخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمه الى ان توفي . [1] كما كان معظم المجتمعين فيها ممن سبق للقاضي الفاضل التعرف اليهم ، وتقريبهم من السلطان ، واعطاؤهم المناصب اللائقة بهم ، ورعايتهم ، والاهتمام بأمرهم . لما كان يراه من نبوغهم . فقد توطدت علاقته بالمهذب بن اسعد بن مماتي ، [2] عندما قصد الاخير صلاح الدين وهو مخيم بظاهر مدينة حمص ، وهنأه بقصيدة اولها :

ما نام بعد البين يستحلي الكرى — الا ليطرقه الخيال اذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقه — بعد المدى سلك الطريق الأخصرا

وكان الفاضل جالسا مع السلطان فقال له ، هذا الذي يقول " والشعر ما زال عند الترك متروكا ، وكان يعني القصيدة التي قالها في مدح الصالح بن رزّيك :

من ارتجي يا كريم الدهر تنعشني — جدواه ان خاب سعيي في رجائيكا

أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم — والشعر ما لازال عند الترك متروكا

فعجل جائزته لتكذيب قوله . فجمع السلطان له بين الخلعة والضيعة [3] . والعلاقة

---

(1) ابو شامة : ٢ ، ٣٥

(2) الاسعد بن الخطير ، كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ، اسلم زمن صلاح الدين ياقوت " ياقوت ٦ ، ١١٣ "

(3) ابو شامة : ١ ، ٢٤٠

٤ـ على ان من أهم المظاهر التي تشير الى تأثير الفاضل شخصية الناقد لديه ، فقد كان في هذه الناحية مرجعا في الحكم على الادب والادباء ، وأصبح لرأيه وزنه الخاص، ولتوجيهاته مدلولاتها البعيدة ، وربما رأينا في احكامه النقدية اليوم سذاجة احيانا او اهتماما بالجزئيات احيانا ، او نوعا من التقريظ وبخاصة لقصائد ابن سناء الملك، ومع ذلك يجب ان لا نقلل من اهميتها لانها صادرة عن رجل كان يعده الادباء من حوله اماما لهم .

فهو الذي شجع العماد الاصفهاني على عمل مختارات لشعراء العصر ، فأنجزها العماد في ما سماه " الخريدة " — ومن ضروب هذا التشجيع ان القاضي الفاضل اهداه تسع مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على اشعار اهل العصر المغربيين وآدابهم ودله فيها على بعض ما جاؤوا فيه من المعاني المبتكرة واغرابهم فيها واعجازهم واعجابهم . (١)

كذلك شجع ابن سناء الملك على صنع مختار من شعر ابن الرومي ، فبدأ ابن سناء الملك العمل مختارا حرف الالف بعد ان قرأه على القاضي الفاضل ووعد بالاكمال ثم سافر الى دمشق فكتب اليه القاضي الفاضل يستحثه على انجاز هذا العمل ويقول : " كان القاضي السعيد لما وصل الى دمشق عائدا جعل قراءه شعر ابن الرومي واختياره فاختار حرف الالف وتوجه قبل تمام الاختيار ووعد بأنه يكمله ،

---

(١) الاصفهاني : ١ ، ٤٤

فلم لا أنجز ميعاده ولم لا أجعل مرادى مراده وكان يبرز من الشعر محاسنه المغمورة ويلفظ ابياته الخراب ويبقي ابياته المعمورة وكان ابن الرومي/ يكد/ كل يشكره في لحده ويستعير السنة الأخبار في حمده " . فأجابه ابن سناء الملك " اما ما أمر المولى به من شعر ابن الرومي فما المملوك من اهل اختياره ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره لأن بحاره زخارة واسوده زأارة ومعدن تبره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة منه الف نقاب بل الف ستارة يطمع ويؤيس وينفر ويؤنس وينير ويظلم ويصبح ويعتم شذرة وبعرة ودرة وآجرة وقبلة بجانبها السبة وحرة تجاورها قحبة ووردة حف بها الشوك وبراعة غطى عليها النوك لا يصل الاختيار الى الرطبة حتى يتجرح بالسلى ولا يقول عاشقها هذا المليح قد أقبل حتى يقول قد ولى . فالمولى من جهابذته فكيف وقد تفلس فيه الوزير ولا من صيارفته ونقاده ولو اختاره جرير لأعياه تمييز الوشي من الحشي والوبر من الحرير . والمملوك يكمل بمشيئة الله تعالى بقية قراءة حروفه ولكن بين يدى من قرئ بين يديه حرف الألف ليشاهد من مولاه معجز اختياره الذى يجعل المختلف فيه من الشعر المؤتلف " . (1)

وهذا يدل على عناية القاضي الفاضل بشعر ابن الرومي ، كما ان رأى ابن سناء الملك يدل على تهيبه لاقتحام هذا البحر الخطير ، وهي شهادة لابن الرومي ومدى العناية به في القرن السادس الهجرى .

---

(1) الصفدى : ٢ ، ١٦٥

ويستشهد العماد برأى الفاضل في غير موضع من كتابه حسين يتصدى لاحد الشعراء ، فأبو الحسن بن زيد الانصارى رجل لم يسمع الدهر بمثله (في رأى القاضي الفاضل) [1] ورضي الدولة ابو سليمان المحلي شاعر ملء فكيه — كذلك قال فيه القاضي الفاضل . [2] واعتقد ان القاضي الفاضل لم يكن يرسل هذه الاحكام ارسالا شفويا ، وانما كان له مجموع مكتوب في شعراء عصره — والعماد ينقل منه ، ولكن هذا المجموع الذى اقدر ان القاضي الفاضل الفه لم يصلنا .

وهناك جانب من نقد القاضي الفاضل شكلي بالالفاظ ، فقد عاب على ابن سناء الملك استعماله كلمة " الكنس " في بيت من ابياته وهو :

صليني وهذا الحسن باق فربما يعزّل بيت الحسن منه ويكنس

قال له فيه " وما قلت هذه الغاية الا وتعلمني انها البداية ، ولا قلت هذا البيت آية القصيد الا قائلا ما بعده ، وما نريهم من آية ، أفسحر هذا أم انتم لا تبصرون . ولا عيب في هذه المحاسن الا قصور الافهام ، وتقصير الانام ، والا فقد لهج الناس بما تحتها ، ودونوا ما دونها ، وشغلوا التصانيف والخواطر والاقلام بما لا يقاربها ، وسارت الاشعار وطالت بما لا يبلغ مدها ولا نصفه ، والقصيدة فائقة في حسنها ، بديعة في فنها ، وقد ذلت السين فيها وانقادت ، فلو انها اللؤلؤ لما زادت ، وبيت يعزل ويكنس ، الراء

(١) الاصفهاني : ٢ ، ٤٥

(٢) المصدر نفسه ٢ ، ٤٥

أردت ان اكنسه من القصيدة ، فان لفظة الكنس غير لائقة في مكانها " . فأجابه ابن سناء الملك قائلا " وعلم المملوك ما نبه عليه مولانا من البيت الذى اراد ان يكنسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت الذى أراد ان يكنسه من القصيدة ، مستحليا له متعجبا منه ، معتقدا انه قد ملح فيه ، وان قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما اوقعه في الكنس الا ابن المعتز في قوله :

وقوامي مثل القناة من الخط وخدّى من لحيتي مكنوس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ، ولا آنس ناره الا لما وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك الا الى طريق من ميله اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من دلّه عليه سمعه ، ورأى المملوك ابا عبادة قال :

ويا عاذلي في عبرة قد سفحتها لبين ، وأخرى قبلها للتحبيب
تحاول مني شيمة غير شيمتي وتطلب مني مذهبا غير مذهبي

وأورد حججا كثيرة يبرر فيها استعماله لهذه الكلمة . فأجابه القاضي الفاضل بقوله " ولا حجة فيما احتج به عن الكنس في بيت ابن المعتز ، فانه غير معصوم عن الغلط ، ولا يقلّد الا في الصواب فقط ، وقد علم ما ذكره ابن رشيق

في عمدته من تهافت طبعه ، وتباين وضعه ، نذكر من محاسنه ما لا يعلّق معه كتاب ، ومن باردة وغثه ما لا تلبس علـيه ثياب " . (١) وقد استشكل الصفدى على وقفة القاضي الفاضل هذه من مثل هذه الكلمة وقال " ان الفاضل نفسـه ممن يتوخى هذه الألفاظ ويقصـد ها ويغشيها وينشد ها ويورى زناد ها ويورد ها في بعض رسائله ، وما استطاعت ايديهم ان تنبض جمره ولا البابهم ان تسيغ خمره ولا سيوفهم ان تكنس قيمه ولا اعراضهم ان تأخذ لطيمه " . (١)

ومن أمثلة ذلـك تعليقه على قصـيدة لابن سناء الملك يهنئه فيها بالقدوم من دمشق : " ومارأيت اغرب من مطلع القصـيدة ولا أدل منها على شطارة طبع ولا من بيت الكأس المكسورة ولا أدل منه على صلابة ينبع ولا من الورق الخضر " يشير الى ابيات في القصـيدة يقول فيها الشاعر " :

وساحرة عانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

و . . فلا تنكروا منها الخضاب فانما هي الغصن في اطرافه الورق الخضر

ولا هو أدل منه على رقة طبع وشدة نزع ، ما هو الا مالك عنان الفضل في عصره وواحد كل دهر ولا اسمح بهذه المنقبة لدهره ، وما تخصصت الا بخيبة ابن المعتز عن ان يسمع كما نسمع فيقطع بفضـله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ، ويغيض عن غلواء توجيهه ، ونوافقه على انه اتكأ واتكل على ذى الرمة فأخذ في طريقه مستأنسا برفيقه ،

---

(١) القلقشندى : ٢ ، ٢٤١ — ٢٤١

(٢) الصفدى : ٢ ، ٢٤٦

فما ترك له تشبيها الا نقله ، وصقله ، واستعمله ، واستنزله ، وروجه ، ورندجه ، وأخرجه وخرجه ، ولو تأمل شعر ذي الرمة لخرج منه ما قاله برمته وعرف انه قال غيلان فغار على بنات فكرته ، فكان ابن المعتز يخلع على تلك البلاغة خلعة من ملك الخلافة فتشبّه يوماه ويرجع عنه عن القول بامامته من المبايعين والمتابعين قوماه وكان يصدق شيخ البلاغة اذ يقول، ولكنه صوب العقول ، وصاحبنا هذا صحبته الديم وصحبه النعم ، وسبّح بحمده القلم ، ما استأنس الا بنفسه ولا رأى مثلها ولا يرى ولا نرى ولا أخرج الا من كيس فكره النقود التي تباع بها القلوب وتشترى ". (1) وتعليق آخر على قصيدة فائية لابن سناء الملك ايضا حيث يقول " فأما الفائية فالواو عندما فأنا ومن هو انواو الركيك بل كل شاعر مغلق على حروف المعجم عندها فأنا وأوجه الحساد عند سماع قوافيها اقفاء ، ولو وفى سار بنظره عندي لوقت ولو استعطفت الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ولو ان البلاغة حلة لكان لابسها ولو ان الشعر حلبة لكان فارسها ". (2) وله تعليق على قصيدة ثالثة بقوله " وهي قصيدة فريدة صارت بعدها القصائد قصدا وطريقة فيها صارت طرائق البلغاء بعدها قددا ، وان قلت انها نادرة فالنادر رأيت ، او سيّارة فانها لا تحتاج الى لسان راويها ولا الى يد ناقلها فهي تدل على نفسها باشراق شمسها ولا تزال جديدة الأيام يوم قدومها وكل الليالي ليلة عرسها ، تلا تعدو ان تدير على العقول

---

(1) ابن سناء الملك ، هامش، ٢٧٨ — ٣٧٩

(2) المصدر السابق ، هامش، ٤٧٥ — ٤٧٧

كأسا لا يجني الحديث في طريق فهمها ما يجني الحديث في طريق الكأس من جنسها " . (١)

غير ان هذه الأمثلة وان كانت تنحو نحو المدح والثناء - مع نقد يسير في بعض الأحيان - تدل على مدى رعاية القاضي الفاضل لتلميذه وصديقه ابن سناء الملك ، وان حماسه لاتجاهه الشعرى ، انما كان بوحي من هذا التشجيع المتواصل .

وله تعليقات عديدة على بعض رسائل العماد يقول في احداها :

" فأما الرسالة التي لزم فيها الحرفين وهما الميم والدال ، وهما الحرفان اللذان لزم مجموعهما خاطرها ، وهو المد الذى لا يتعقبه جزر ، ولا يأتي عليه حصر ولا حزر ، ولا يعارضه سابح الا احتجفه ، ولا يبارى سحره قائل الا .... ووقف ، فتلك رسالة شغلت لحظات العيون منظرها ، و[illegible] وملأ قبضات الأيدى جوهرها ، ولا أحصيت خواطر عبد ، الا منذ انتجعها ، ولا مليت اذن الا منذ سمعها ولا اهتدى في مضال الكتابة الا منذ اوقد الفضل نارها على علم من كتابه ورفعها ، فتبارك معطيها ولله متعاطيها ، لقد ظن اذ فتح ورقها انه يخصف عليه من ورق الجنة حقا ، وقال يقول اهلها كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، اذ تشابه التجنيس لفظا وخطا ، وزهت روضته بغصون اسطر تشبه ضبطا ونقطا ، وشافهت محاسنها الأذن

---

(١) المصدر السابق ، هامش، ٢١٧

فعلقت منه قرطا ، وجاءت بمنطق العرب الأصيل وأخذت على خواطر الوصف كل وصيل وتطعت عليه عربيتها طريق المعارضة تطع الاعراب وكان كتابها لجل ولكل أجل كتاب ".[1] ويقول له في رسالة أخرى " ونفذت بلاغته بسلطانها ، ونفثت بسحر بيانها ، وصلى القلم من يده في محراب من طرسه على سجادة ، وجاء منه كتاب لو كان من البحر مداد لما زاد ، وكم كتاب لا يساوى مداده ، وتحاشرت فيه اجناس التجنيس و . . . الاقلام فأدت ما كانت استعدته وقت كونها خسا لساكن الخس ، وجاء النمط العالي والغاية التي لا يصلها التالي ، ولا يسلو عنها السالي ، وأخذت روضة الأدب زخرفها ، وحملت من الرسالة أحرفها ، وشنت الغارة على السمع والبصر ، وزارت بليلة كليله الذوائب حسنها في الطول وحسن الليالي في البصر . وسلم بها من اسلم وبهت الذي كفر ".[2]

اما شخصيته من حيث أثرها في النثر والشعر فتحتاج ان نفرد لها القول في فصلين تاليين ، لاتساع هاتين الناحيتين ، أعني كونه ناثرا وشاعرا .

---

(١) المختار من كلام الفاضل ، ١٥

(٢) المصدر نفسه ، ٤٠

الكتاب الثالث

القاضي الفاضل الناثر والشاعر

القاضي الفاضل الناثر

صورة موجزة لحال النثر قبل القاضي الفاضل

أ - النثر في المشرق الاسلامي

عرف السجع ، احد عناصر الكتابة الفنية ، في النثر العربي منذ العصر الجاهلي (١) ثم ظهر ظهورا واضحا في القرآن والأحاديث النبوية وخطب الخلفاء (٢) فيما بعد وظل ملازما للكتابة العربية يظهر فيها بين آن وآخر على أيدى بعض الكتاب حتى اصبح عاما بين الكتاب في نهاية القرن الثالث للهجرة .(٣)

اما في القرن الرابع فبرزت عناصر فنية أخرى الى جانبه على اقلام جماعة من الكتاب ظهروا في الامارات الفارسية المنفصله عن جسد الخلافة العباسية (٤) آثروا البديع واظهروا اعتناء بالمحسنات اللفظيه والمعنويه ، وأسرفوا في توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقه والمجانسه ، والتزموا السجع في جميع الرسائل وضمنوا رسائلهم ابياتا من الشعر والنثر كما ألفوا في موضوعات خاصة كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف . (٥) اشتهر من بينهم ابن العميد الذى جمع في نثره

---

(١) المقدسي : ١ ، ١
(٢) مبارك : ١ ، ٧٠
(٣) ضيف : ٨٩
(٤) مبارك : ١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢

بين طريقة العصر السابق له ، والطريقة الجديدة المبنية على التأنق[1] فاهتم في نثره بالسجع القصير المتوازن ، والجناس ، والطباق ، والتصوير ، وضمن رسائله بعض ألفاظ القرآن وابياتا من الشعر . وتقارب في اشاراته التاريخية واللغوية والعلمية .[2] والصاحب بن عباد[3] الذى اعتمد في رسائله الى حد بعيد على البديع ولجأ في حالات عديدة الى استعمال الألفاظ ذات الحروف الضخمة ، حروف التفخيم والاطباق كالقاف والضاد ، والظاء ، والصاد ، والطاء ، ليجعل لكلامه جلجلة ورنينا[4] وابو اسحق الصابي[5] الذى اعتد في تكلفه اكثر من زميليه . " وكان لهؤلاء الكتاب وغيرهم ممن قلدوهم يد في تحويل الكتابة الى تحف فنية خالصة يراد بها قبل كل شئ ان تعبر اجمل تعبير عن كل ما يمكن من زخرف وحلي وتنميق ".[6]

وظهرت في فترة غير بعيدة ، من هذه مجموعة أخرى من الكتاب لم يكتفوا بالخصائص الفنية التي استعملها هؤلاء الكتاب فراحوا يسرفون في استخدام البديع

---

(١) المقدسي ، ١ ، ٣٦٢

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٦

(٣) فارسي الأصل ، وزر لمؤيد الدولة وفخر الدولة ، من حكام البويهيين حتى وفاته عام ٣٨٥ . وكان تلميذ ابن العميد " ياقوت ٦ : ١٧١ "

(٤) مقدمة رسائل الصاحب

(٥) ابراهيم بن هلال الحراني ، تولى ديوان الانشاء ببغداد عام ٣٤٩ هـ ابن خلكان : ١ ، ٣٤ — ٣٥

(٦) ضيف ، ١٠٩

ويعقّدون اساليبهم ويعتنون بوحدة القافية في كثير من الأحيان ، ويلجأون الى التهويلات والمبالغات ، ويسرفون في الاعتماد على الطباق والجناس ومراعاة النظير بين الألفاظ والكلمات ويستخطون الغريب من الألفاظ ويكثرون من الأمثال والاقتباس عن القرآن [١] كأبي بكر الخوارزمي [٢] وبديع الزمان الهمذاني [٣] وقابوس بن وشمكير [٤] ففسحوا المجال لغيرهم من كتاب العرب لتقليدهم واضافة عنصر التعقيد الى الكتابة العربية بعدهم بأجيال .

ب - النثر في مصر

بدأت أهمية النثر تظهر في مصر مع ظهور ديوان الانشاء فيها زمن احمد بن طولون [٥] الذى استكتب ابن عبد كان [٦] وجاء ببعض الكتاب

---

(١) تراجع بعض رسائلهم في يتيمة الدهر للثعالبي ، ٤ و ١٦٧

(٢) ولد ونشأ في خوارزم ، واستقر في نيسابور حتى وفاته عام ٣٨٣ هـ " الثعالبي ٤ ، ١٢٢ " .

(٣) ابو الفضل احمد بن الحسين ، من اهالي همذان ، اشتهر بمقاماته الاربعمائة التي كتبها وتوفي بهراة عام ٣٩٨ " المصدر نفسه ، ٢٦٧ "

(٤) كان صاحب جرجان وطبرستان ، اشتهر بترسله وتوفي عام ٤٠٣ ، (ياقوت ١٦ ، ١٩ ، ٢٢٠) .

(٥) ولي الحكم بمصر عن المعتمد عام ٢٦٦ ، وبقي فيه حتى وفاته عام ٢٧٠ هـ " ابن خلكان ١٥٦ " .

(٦) ابن عبد كان ، ابو جعفر محمد بن الخيد بن مودود ، من اشهر الكتاب زمن احمد بن طولون " القلقشندى ١ ، ٩٥ " .

من العراق لمعاونته في الكتابة نزاد في اهمية الديوان وأثره . (١) ولم يخرج ابن عبد كان في اسلوبه عن الكتاب المشرقيين ، فقد اظهر اعتناء بالسجع القصير والازدواج (٢) وتضمين رسائله آيات من القرآن ، واهتمامه بالتصوير . كما وضع اصول الابتداءات في الرسائل وافتتاحاتها ، وأصول اختتامها وعنواناتها . (٣)

وفي العهد الفاطمي عظم امر الديوان ، واهتم به الخلفاء وراحوا يختارون لرئاسته خيرة الكتاب المسلمين والذميين حتى انتهى عهدهم ورئيسه القاضي الفاضل الذى استمر عليه حتى نهاية عهد صلاح الدين . (٤) وازدهر النثر المصرى في هذه الفترة بازدهار ديوان الانشاء وظهور عدد كبير من الكتاب لم نستطع ان نتبين مذاهبهم الفنية في الكتابة لفقدان آثارهم . (٥)

اما خصائص نثر كتاب هذه الفترة بوجه عام فمشتركة بينهم وقائمة على التزام السجع ، والاقتباس من القرآن ، والمبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية . فقد اصبح الكتاب يغرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظير . وهي الخصائص التي اعتنى بها الكتاب المشرقيون من قبل . غير ان الكتاب الفاطميين اختصوا بالمقدمات الطويلة

---

(١) القلقشندى : ١ ، ٩٦
(٢) رسالته في صبح الاعشى : ٧ ، ٥ — ٦ ، ضيف ، ١٨١
(٣) القلقشندى : ٨ ، ١٦٥
(٤) السيوطي : ٢ ، ١٤٦ — ١٤٧
(٥) حسين — ٣١٦

التي كانوا يبدأون بها رسائلهم وسجلاتهم ، اذ دفعتهم عقيدتهم الدينية ومذهبهم الفاطمي ان يبدأوا الرسائل والسجلات بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والائمة من اهل البيت" . (١)

اما اشهر ناثرى هذه الفترة فابن ابي الشخباء (٢) الذى قيل ان القاضي الفاضل استمد من رسائلهم وحذا حذوه في الكتابة . ويلاحظ من رسائله القليلة المحفوظة في معجم الأدباء وجمهرة الاسلام المخطوط اعتماده في نشره على السجع والازدواج واعتناءه بالجناس التام والناقص بكثرة ، وتضمين الشعر في رسائله واقتباساته عن القرآن واهتمامه بالتشخيص والاستعارة والتصوير ، فهو يقول في احدى رسائله " وصلت رقعة مولاى والصبح قد سل على الافق مقضبه ، وازال بأنوار الغزالة غيهبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، وثمار البلاغة وازهارها ، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاصية المدى ، ويجرى به في مضمار الأدب مفردا " .

فكأن روض الحسن تنثره الصبا فاطلت من قرطاسها الصفح (٣)

---

(١) حسين ، ٣١٤

(٢) الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن ابي الشخباء ، العسقلاني ، كتب في ديوان الرسائل للمستنصر ، توفي ٤٨٢ هـ " ياقوت ٩/ ٥٢ ، " ابن خلكان ١/ ٣٦٨ "

(٣) ياقوت ٩ ، ١٥٧

وفي أخرى يظهر براعته بالجناس بقوله " ونبه منبه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ، وضحك لعبس عابس الدهر ، وراحت الكلمة الكملة كاملة الفخر، وزادت مخالظ الأزد ونشرت قشيرا عن بلوغ المجد ، واغمدت سيوف بني غامد ، وصارت همدان كالخمد كالجمر الهامد ".(١)

ومن خصائص اسلوبه ايضا استعماله بعض الفاظ العلوم واللغة في رسائله . وسار على نهج ابن ابي الشخباء في النثر كتاب الدواوين الذين تلوه كابن الصيرفي (٢) وابن قادوس (٣) احد اساتذة القاضي الفاضل الذى اعتنى كثيرا بالطباق والجناس والتصوير والتشخيص والتورية والاستعارة والتشبيه وتضمين الشعر ، وموفق الدين ابن الخلال (٤) الذى تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الديوانية بين يديه . وهو يعتني ايضا بالمحسنات اللفظية والمعنوية كغيره من كتاب عصره وسابقيه ويشخص المعاني ويضمن رسائله آى القرآن ، ومن نثره للتمثيل ، قوله في سجله بتولية شاور :

---

(١) المصدر السابق ، ١٨٠ — ١٨١

(٢) علي بن منجب الصيرفي — اشتغل في الكتابة في ديوان الجيش والخراج ، وخدم الحافظ "ابن ميسر ٩٧" ، "القلقشندى : ٨ ، ٣٢٦ — ٣٢٧"

(٣) كافي الكفاة ابو الفتح ابن قادوس . احد كتاب الدواوين في العهد الفاطمي ، توفي عام ٥٥٣ "ابن ميسر ٢ ، ٩٧"

وللقاضي الفاضل قصيدة في ديوانه في مدحه .

" وراقب الله فيما القاه اليك فقد فوض اليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض والولاية والعزل والقطع والوصل ، والتولية والتصريف والصرف ، والامضاء والوقف ، والخفض والتنبيه ، والاخمال والتنويه ، والاعزاز والإذلال " . (١)

يظهر لنا بعد هذا العرض السريع للنثر المصري انه متأثر بنثر ابن العميد ومدرسته الى حد بعيد وانه مر في اطوار عديدة حتى وصل الى ما توصل اليه من التعقيد والزخرف على يد ابن ابي الشخباء في العصر الفاطمي ، والقاضي الفاضل في العصر الايوبي . اذ اعتنى الكتاب الأول بالسجع والمحسنات اللفظية والمعنوية الا انهم لم يغرقوا فيها ، ولم يعتمدوها كليا في رسائلهم . وربما لو وصلنا عدد اكبر من رسائل الفترة السابقة لابن ابي الشخباء لتمكنا من الاطلاع على خصائص النثر المصري بصورة أدق . وما وصلنا عن ابن ابن الشخباء يدل على تأثره بأصحاب البديع المشرقيين في التأنق في الرسائل واعتماد المحسنات ، اما الكتاب الذين تلوا ابن ابي الشخباء فلم يصلنا من نثرهم سوى قليل من سجلاتهم الرسمية التي لا تعطي فكرة كافية لاصدار حكم على اسلوبهم . وهم على كل حال يقتفون اثر ابن ابي الشخباء بزخرفة اسلوبهم .

---

(١) القلقشندي ١٠/: ٣١٦ ، ٣١٧

نثر القاضي الفاضــل

يتبين لنا مما تذكره بعض المصـادر ان القاضي الفاضل ألف في ابواب عديدة في النثر، وانتج عددا ضخما من الرسائل، قيل أن ما جمع منهـا يزيد على الخمسـين مجلدا (١) وان ما لم يجمع من مسوداتها لا يقل عن المائة مجلد . (٢) هذا عدا عن مذكراته السنوية التي سماها بالمتجددات، وتعليقاته على المتجددات التي لم يصلنا منها سوى قطـع قليله حفظها المقريزي في خططه ، ومقاماته التي تفرد الصـفدي بذكرها في كتابه نصرة الثائر على المثل السائر ، وقال انه اراد بها معارضـة مقامات الحريري ووضع ثلاث عشرة مقامة منها عارض كل فصـل بمثـله حتى جاء الى قول الحريري في المقامة الثالثة عشـرة ، اعلموا يا مآل الأمل وثمال الأرامل اني من سروات القبائل وسريات العقائل ولم يزل اهلي وبعلي يحلون الصـدر ويسيرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد ، فلما أردى الدهر الاعضاء ، وفجع بالجوارح الاكباد ، وانقلب ظهر البطن نبأ الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة ولم يبق لنا ثنية ولا ناب (فقدا) غير العيش الأخضر وازور المحبوب الأصفر اسود يومي الأبيض وابيض يومي الاسود حتى رثى لي العدو الأزرق فحبذا الموت الأحمر . فقال القاضي الفاضل ، من اين يأتي للانسان بفضل يعارض هذا ثم انه قطع ما عمله من مقامات ولم يظهرها " . (٣)

---

(١) انظر ابن النويري ؛ ٨ ، ٥٠

(٢) المقريزي ؛ ٢ ، ٣٣٦

(٣) الغزولي ؛ ٢ ، ١٢٧

اما ما وصلنا من رسائله فقليل جدا بالنسبة لما وصفه المؤرخون ، وحفظ بعضها في مجموعات لم تنشر بعد ، قام بجمعها ونسخها بعض الكتاب المتأخرين ، امثال جمال الدين ابن نباته [1] الذى جمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب اسماه "الفاضل من كلام الفاضل" . وموفق الدين الديباجي [2] الذى نسخ بعض رسائله عن كتاب باسم " من ترسل القاضي الفاضل " ، ومحي الدين ابن عبد الظاهر [3] الذى نقل مجموعة باسم " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم " ، وله مجموعة في مخطوط باسم "كتاب فيه من كلام الفاضل " نسخ بعد وفاته بحوالى تسعين عاما .

وحفظ قسم آخر من رسائله في بعض كتب التاريخ التي استشهد بها مؤلفوها على بعض احداث العصر ، امثال ابي شامة في كتابه "الروضتين في اخبار الدولتين ، النورية والصلاحية " وابن واصل في كتابه " مفرج الكروب في اخبار بني ايوب " ، وابن تغريبردى في كتابه " النجوم الزاهرة " ، كما احتفظ مؤلفو بعض المصادر الأدبية بقسم من رسائله من بينهم القلقشندى في كتابه " صبح الاعشى في صناعة الانشا " والنويرى في كتابه " نهاية الأرب " وابن كثير في " البداية والنهاية " ، وابن خلكان في " وفيات الأعيان " والغزولي في " مطالع البدور " ، والصفدى في "الغيث " وغيرهم .

---

(١) محمد بن محمد بن الحسن ، ولد سنة ٦٨٦ هـ وعاش قسطا من حياته في الشام ، ثم انتقل الى مصر حيث توفي عام ٧٨٦ هـ اشتهر برسائله وخطبه وشعره" Brockleman, "Ibn Nubata" Ency of Islam, 2, 407
(٢) من كتاب الانشاء في آخر العهد الايوبي ، زمن الملك الكامل بن ايوب
(٣) من كتاب الدواوين في مصر . اشتهر بترسله ، وتوفي عام ٦٩٢ هـ "الكتبي / از ٤٥١ " .

وتنقسم رسائله الى نثتين ، رسائله الديوانيه،التي أصدرها عن ديوان الانشاء في آخر العهد الفاطمي والعهد الصلاحي، والاخوانية التي كاتب بها اصدقاءه حتى وفاته .

رسائل القاضي الفاضل الديوانيه

١ـ العهود والسجلات

أصدر القاضي مجموعة من السجلات والعهود عن الحكام الفاطميين في آخر عهدهم ، وصلنا منها عهدان بتولية الوزاره لاسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبي سنة ٥٦٤ ، اضاف لهما الشيّال عهدا ثالثا بتولية الكامل بن شاور نيابه الوزاره عن ابيه اثناء الحمله الصليبيه الثالثة على مصر بقيادة عموري أورده القلقشندى على انه لموفق الدين ابن الخلال ، ونسبه الشيّال الى الفاضل محتجا برأيه انه عندما حاصر الفرنج القاهرة وضايقوا اهلها واتفقوا مع شاور على تعجيل مائة الف دينار لهم ، أرسل الخليفه العاضد القاضي الفاضل الى ابن الخلال ، وكان مريضا والفاضل ينوب عنه ، بتعيين الكامل بن شاور ، فمضى الفاضل الى ابن الخلال وعرض ما تقرر عليه ، ويؤكد الشيال ان كاتب هذا السجل القاضي الفاضل ، لا لأن ابن الخلال كان مريضا حسب ما ورد في النص، وان الفاضل كتب السجل بتعيين

اسد الدين شيركوه وزيرا بعد نصف شهر في ١٩ ربيع الأول عام ٥٦٤ هـ " ، [(١)]
وبهذا نستطيع ان ننسب الى الفاضل ثلاثة عهود بتولية الوزارة ، وله عهود أخرى
بتعيين ولاة لثغر الاسكندرية ، وقضاة لبعض المدن والثغور ، وروال للحسبة ،
وباقطاع اراضي الى احد الامراء ، وأحد الوزراء ، ووصلنا عنه في العهد الصلاحي
منشور بتغيير السنة القبطية الى هلالية .

حافظت سجلات القاضي الفاضل على شكلها وصيغتها الرسمية المعدة
لها زمن الفاطميين من حيث افتتاحها واختتامها ، وحافظت على نقل المادة
المطلوبة منها فيها . كما كشفت ضمن طياتها الرسمية عن جانب من سياسة الفاطميين
الدينية والاجتماعية والسياسية ، فهي بشكلها الرسمي وذكرها المتكرر للخليفة
الفاطمي ونسبه واضافته بعض الصفات الخاصة له تدل على شيء من المعتقدات الفاطمية ـ
وما كان يفرضه الخلفاء الفاطميون حول أنفسهم من عظمة وجلالة ، وعلى مدى اهتمامهم
بأمر الدعاة للفاطمية ، كما تدل على أهمية مركز القضاء والحسبة ، ومعاملة الفاطميين
لأهل الذمة واهتمامهم بأمر المساجد وبالفقهاء والعلماء والقراء والمؤذنين ، كما تكشف
عن جانب من جوانب الحياة الاجتماعية انتشرت خلاله الفوضى في آخر عهد العاضد ،
فالرعايا ، كما يذكر القاضي الفاضل ، في سجله بتولية اسد الدين شيركوه وزارة الدولة
المصريه ـ بحاجة الى الاستقرار والطمأنينة " بعد ما ناله من اجحاف الجبايات
واسراف الجنايات ، وتوالى عليهم من ضروب النكايات " . [(٢)] زمن الوزير شاور .

---

(١) الشيال ، ١ ، ١٧٠

(٢) القلقشندي ١٠ ، ٨٩ ـ ٩٠

وتشير في حالات عديدة الى بعض الاحداث السياسية كهبة اسد الدين شيركوه لنصرة الخليفة الفاطمي ضد الفرنج وشاور ، وعن مجيئه المتكرر الى البلاد وخلافه مع شاور ، حيث يقول " وأجليت طاغيه الكفر وسواك اجتذبه ، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا يصيره له وكذبه ، وأندمت على الصليب وجمراته متوقدة وقاتلت اولياء الشيطان وغمراته متمردة ، وما يومك في نصرة الدولة بواحد ، ولا أمسك مجحود دأبه رغم انف الجاحد ، بل اوجبت الحق بهجرة بعد هجرة ، وأجبت دعوه الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة " . (١) ويذكر فيها ايضا اشارات الى ظلم شاور الذى " تمادى في ضلالته ، واستمر على استطالته ، واجتاح للدوله رجالا ، وضيق من ارزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر واسلحة واموالا ، ونقلها من ايدى اوليائها الى اعداء الله " . (٢) ولا يخلو سجله لصلاح الدين من اشارة الى الحالة المضطربة في الجيش المصرى حين اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران ، المغربي ، اولياء الدولة القدامى ، والشرقي جنود صلاح الدين " . (٣) حين يقول الفاضل لصلاح الدين "وأولياء أمير المؤمنين ، وانصاره الميامين ، ومن يحف بمقام ملكه من الامراء المطوقين والاعيان المعصبين ، والاماثل والاجناد اجمعين ، فهم اولياؤه حقا ومماليكه رقا ، والذين تبوءوا الدار والايمان سبقا ، وانصاره غربا ، كما ان عسكرك انصاره شرقا ، فهم وهم يد في الطاعه على من ناداهم ، يسعى بذمتهم ادناهم ، وتحكم فيهم وانت عند امير المؤمنين اعلاهم" (٤)

---

(١) القلقشندى / ١٠ ، ٨٤ ـ ٨٥

(٢) المصدر نفسه ، ٨٥

(٣) الشيال ، ١٧٦

(٤) القلقشندى ، ١٠ ، ٩٦

٢ـ الرسائل التاريخية

وسجل جزءا خاصا بتاريخ عصره في مجموعة من الرسائل أصدر قسما منها عن ديوان الانشاء زمن العاضد عندما كان موظفا في ديوان الانشاء ، وقسما آخر زمن صلاح الدين حينما اصبح احد رجال الدولة الرسميين المطلعين على دقائق الموقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي في البلاد ، والمسئولين عن نقل الموقف وشرحه بدقائقه الى السلطان وذوى الشأن في البلاد الاسلاميه . وقسما ثالثا زمن العزيز عثمان . فكان يسجل كل ما يقع له في البلاد بطريق رسميه عن ديوان الانشاء ، وبطريقة ردية خلال رسائله الاخوانية الى اصدقائه . فقدم لنا بذلك صورة حقيقية عما كان يجرى في البلاد . وأول ما وصلنا عنها شرح الموقف بين العرب والفرنج في آخر عهد شاور ، وتخلف بعض القبائل العربية " بنى جعفر وطلحة " عن المشاركة في الجهاد واظهارهم الشغب . ثم الخلاف بين شاور وأسد الدين شيركوه ومسير الأخير الى الصعيد . وما قام به صلاح الدين من اصلاحات اولها اعلان الخطبة للعباسيين وفتوحات بعد توليه الحكم في مصر كفتح اليمن وبعض بلدان المغرب ، وشرح الموقف السياسي الداخلي المضطرب في البلاد الناجم عن ثورة بعض الفئات على العهد الجديد كثورة كنز الدولة وبعض الشيعة والقضاء عليها . ثم انتقل مع صلاح الدين الى الشام ليسجل له كل ما كان يقوم به من فتوحات داخل سوريا برسائل الى الخليفة ببغداد والى بعض الأمراء المسلمين

وحكامهم في المغرب واليمن وغيرها ، وغزوات الى بلاد الفرنج ومعاركهم معهم وانتصارات السلطان . مقدما بذلك صورة واضحة لتحركات السلطان وأعماله حتى عام ٥٨٣ هـ عندما انتهى صلاح الدين من فتح القسم الاكبر من سوريا وأخذ يعد العدة لاعداد الجيش لاسترجاع البلاد الفلسطينية من ايدى الفرنج فأرسل القاضي الفاضل الى مصر ليشرف على الادارة فيها ويخبره بما يجرى في مصر من احداث داخلية ، وما يجرى بين العرب والفرنج في الغرب ، وينقل في الوقت ذاته ما كان يخبره السلطان به من فتوحاته في فلسطين ليسجلها ايضا ، فوضع في هذه الفترة الحاسمة في تاريخ المسلمين سجلا كبيرا من الرسائل التاريخية ملئ بالحماس والغبطة لانهزام الفرنج المتكرر ، وقوة الجيش والاسطول العربي ، وتوحد القوات العربية وعلاقة العرب بعضهم مع بعض ، ومع الفرنج .

ثم قدم سجلا للحملة الصليبية الثالثة على فلسطين ، وصف فيها مجئ الفرنج وقوتهم وحصارهم عكا ومضايقتهم السلطان ووسائل حربهم باسهاب حتى استردادهم عكا .

ولم يتوقف قلمه عن تسجيل تاريخ مصر بعد وفاة صلاح الدين ، فوقف يشاهد انقسام البيت الأيوبي متحسرا على انفراط العقد الذى ضحى صلاح الدين بحياته لجمع شتاته " واما هذا البيت فان الآباء منه اتفقوا فملكوا ، وان الابناء اختلفوا فهلكوا واذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه ، واذا بدا تخريق ثوب فما يليه الا تمزيقه ".(1)

---

(1) القلقشندي ج ٧ ، ١٢٦ - ١٢٧

ثم انتقل الى مصر ليراقب ما كان يجرى فيها ، وفي الشام بين العادل والفرنسج مسجلا بذلك بطريق غير رسمية الى صديقه العماد •

وتطرق في بعض رسائله الى وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد في العصر الصلاحي وعهد العزيز عثمان •

وتقع معظم رسائله التاريخية هذه في الفترة الواقعه بين عام ٥٦٤ — ٥٩٦ هـ كتب القسم الاكبر منها بين عام ٥٦٤ و ٥٨٩ هـ اى في عهد صلاح الدين •

٣ــ الرسائل الاخوانية

تعرف القاضي الفاضل بحكم عمله ومنزلته الى عدد كبير من وجهاء الدولة وكبارها ، من حكام وأمراء وفقهاء وأدباء وعلماء ، كان يصلهم بمكاتباته في مختلف المناسبات السعيدة ويعزى حين تلزم التعزية ويتشوق الى اصدقائه المقربين ويعاتبهم حين يتأخرون بالاجابة على رسائله اليهم ، مضيفا بذلك مجموعة من الرسائل الاخوانية الى أدبه • خص السلطان صلاح الدين وصديقه العماد الاصفهاني بقسم كبير منها احتفظت له المصادر بأكثرها ، ومن بينها عدد كبير في رسائل التهنئة الى صلاح الدين بمولوده الثاني عشر ، وبمولود لابنه العزيز عثمان ، وبابلاله من مرض ألم به ، وبسماعه موطأ أبن مالك في الاسكندرية ، وبحلول احد الاعياد ، ومجموعة أخرى في التعزية كتبها الى اشخاص

من بينها رسالة الى الملك الصالح ابن نور الدين ، والى القاضي شرف الدين ابن ابي عصرون في وفاة السلطان نور الدين زنكي ، والى السلطان صلاح الدين في احد اولاده ، والى الظاهر غازي ملك حلب في وفاة صلاح الدين والى العادل في ابن له ، وفي العزيز عثمان ملك مصر ، والى بردويل ملك القدس بوالده ، وفي مؤيد الدولة ابن منقذ ، وحفظت له المصادر ومجموعات رسائله بعض رسائل التعزية لم يرد فيها اسم المعزى ولا المعزى به . وقد وصلتنا مجموعة كبيرة من رسائله في التشوق والعتاب وجه معظمها الى صلاح الدين الأيوبي ، والعماد الاصفهاني ، وابن سناء الملك ، كما وصلتنا مقتطفات من رسائل اخوانية في موضوعات مختلفة ، في الكحالين ، وفي الزكاة وفوائدها ، وفي استعمال الحمام للبريد . ورسالة مستقلة في وصف دمشق .

طريقة القاضي الفاضل الانشائية

رأينا القاضي الفاضل يبحث في فترة موضوعين مختلفين ، احدهما الديواني ، يعتمد على الوصف الخارجي وتسجيل بعض الأحداث والوقائع ، ووصف المعارك ، يحتاج الى الكثير من دقة الكاتب ولباقته ومقدرته على التفاعل بهذه الأحداث والحس بها وتفسيرها ونقدها ليتمكن من اظهارها بمظهر يوحي بقيمتها بالنسبة للعامة وبالنسبة له ، والثاني الأخواني ، وهو عبارة عن تنفيسات نابعة من اعماق الكاتب ليس لها علاقة خارجية بأي شيء آخر ، محورها تبادل العواطف والمشاعر بين الكاتب وغيره من الاصدقاء ، يعبر فيها الكاتب عن مشاعره بصدق واخلاص مرسلا نفسه على سجيتها ،

دون تكلف او تصنع، ودون تفكير بالعبارات المنمقة والصور المزخرفة . لكن هل نجح القاضي الفاضل في ابراز قيمة هذين الموضوعين ؟ لا اعتقد ذلك، لأنه عاملهما معاملة متساوية من حيث الاسلوب ناسيا مادتهما وناسيا في الوقت ذاته ونفسه ودورها في عمله الأدبي في كل منهما . فكان في رسائله التاريخية اسلوبيا الى حد بعيد بحيث جعل الفن يطغى على التاريخ ويفقده الكثير من قيمته، ومن الدقة فيه احدى أسس كتابته فضحى بها في بعض الاحيان في ثنايا تجميل العبارة واخراجها بشكل متأنق وأفقد باهتمامه الشديد بالاسلوب قيمة بعض الفتوح التي كان لها معنى كبيرا بالنسبة له ولغيره، ولم ينقلها ببساطة وسهولة يصف روحها وقيمتها ليضيف الى قيمته فيها كشاهد عيان، وقيمتها لصدورها عنه . نسي قيمة دوره فيها كل هذا واعتنى بالصور العديدة والتشابيه والكلمات الطنانة التي طغت على الحقائق الهامة الموجودة في اغلب رسائله وجعلتها متصنعة متكلفة . وها هي رسالته في فتح القدس، ذلك الفتح الذى طالما انتظره المسلمون وطالما تمناه القاضي الفاضل، حيث كان يجب ان يصوره ويبرز روعته وقيمته وانفعاله هو فيه، يكتبها باسلوب منمق لا يستطيع كل شخص من فهمها وتحليل صورها، كقوله في احد فصولها " وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شقفا، وطارت فرقه فرقا، وفل سيفه فصار عصا وصدعت حصاته وكانت الاكثر عددا وحصا، وكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وغضت عينه وكان عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق لطف الكرى من الجفون، وجدعت انفه انوف رماحه

وطالما كانت شامخة بالمنى او راعفة بالمسون ٠٠٠٠ وتدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوترهم قسيّها التي تضرب فلاتفارقها سهامها في ثنايا شرفاتها سوالفه ، وتدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاقه الى الارض ويعلو علوه الى السماك فشج مرادع ابراجها ، واسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها " . (١)

ولعله ظن انه يستطيع ان يؤثر على قراء رسائله وسامعيه بقدرته الفنية واجادته ايراد الصور العديدة المتلاحقة ، لكنه اخطأ • وليته عامل رسائله التاريخية هذه معاملته لمتجدداته او مذكراته السرية وميارماته التي كتبها باسلوب بسيط منفسا فيها عن تأثره بها ، ومورد ا بها صورا حقيقية شاهدها ، بطريقة لطيفة تجعل القارئ يشاركه رؤياها وينفعل معه فيها حيث لا تكلف هناك ولا تصنع ، بل كتابة أقرب الى السهولة والفهم والذوق • ولعله كتبها بهذه الطريقة علما بأنه يحتفظ بها لنفسه لا ليقرأها حكام العصر وادباؤه ويحاسبونه على اسلوبه فيها •

وأغفل القاضي الفاضل قيمة موضوع اخوانياته وكتبها باسلوب لا يختلف عن اسلوب الرسائل الديوانية ، وهو وان كان له عذر في كتابتها في هذا الاسلوب ، فهو عدم مسؤوليته تجاه قرائه من ناحية الدقة التي كانت تتطلبها الكتابة التاريخية ، غير ان هذا لا يعني انه نجح كثيرا في كتابة رسائله بهذه الطريقه فقد نسي مشاعره الحقيقية

---

(١) القلقشندى ٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ — ٥٠٦

بل تناساها في غالب الاحيان عند ما لجأ الى التهويل والتكرير والاطناب وادخال الشعر والاشارات المختلفــة في رسائله ، ونسي علاقته الشخصية بأصدقائه بأصدقائه الذين كان يخاطبهم ، وضرورة ظهورها على حقيقتها لتنتقل مشاعره الى اصدقائــه فيشاركونه اياها . أغفل كل هذا رأفتقد معظم رسائله هذه سمة الصدق والعاطــفة والروح قوام الكتابة الاخوانية . فاسمعه يصف مشاعره عند ما استلم كتابا من العماد يقول فيه : ولما وقف علــيه العبد خر كما خر موسى صعقا ، وخلفه بدم من دمع شوقه وخليق ان يكون ما (...) عن تلك اليد غلقا مغلقا ، واستعاد من الدهر ساعة وصول الكتاب ساعة ذهول عن الاكتئاب ، وحلت لي الخمر وكنت امرأ ، وقضت له أمنية ابي العلاء نجهل كيف اطمأنت ، الا انه رأى ما لم يره وهو مغاني اللوى من شخصك اليوم اطلال ، ثم عادت الخواطر الخواطل ، واستنجدت الاجفــان المواطر لا المواطل ، وقالت هل الكتاب الا ثمرة ذكر اقتطفتها من الورق ، وخيال حبيب أغرى بك الارق ، ولو لم يكن طيفا لما زارك في ليل مداره ، ولا زاد قــلبك وادعى انه من عواده " (١) والامثلة على هذه المبالغات والمشــاعر المخفية في غلاف التصنع هذا عديدة .

ومع هذا فقد تقبل العصر اسلوبه البديعي هذا واعترف له بفضل السبق فيه ومدحه الجميع وعلى رأسهم صلاح الدين ، ومعظمهم رأوا في اسلوبه في تلك الفترة ذروة الكتابة الفنية ، الا انهم كانوا متأثرين الى حد بعيد بالبيئة .

---

(١) الفاضل من كلام الفاضل ، ٣٢ — ٣٣

خصائص أسلوبه

١ - البديع

أ - المحسنات اللفظية

اتخذ القاضي الفاضل البديع مذهبا في كتابته ، فأكثر من استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية والاشارات والاقتباسات والتضمينات التي أرهق بها رسائله وأبعدها عن ذوق قارئيها ، " في عصرنا الحاضر خاصة " وجعل فهمها متوقفا على جماعة من المثقفين .

واتخذ من السجع اطارا عاما لرسائله نوّع فيه وتفنن في استعماله بين مرصع ومزدوج ومتوازى ، وطويل ، وقصير ، حافظ فيه في أغلب الحالات على الوزن والموسيقى والقافية مظهرا براعة في استعماله . فمن سجعه القصير المرصع قوله " رحيق انوفا وقطبه ، وروح جسد الأجلاء وقلبه ، وحلى معصم الصفاء وقلبه ، أدام الله جماله ، ضاعف جلاله ، وحرس من الغير ظلاله ، وبلغه سؤاله وآماله ، وأحسن منقلبه وعقباه ومآله ، ولا زالت اوقاته مقرونة بالحبور ، وساعاته محفوفة بالسرور " . (١) ومن سجعه الطويل قوله " وصلني كتاب فظللت من حالتيه بين حالين من احوال الجنة ، ظل من خطه ممدود وماء من لفظه مسكوب ،

---

(١) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم " مخطوط مصور " ورقة ١

وبين حالين من احوال أهل النار ، وعذاب شوق غالب وعزم مغلوب ، فسبحان من جعل آراءه في الكلمات مصابيح ، وفي المشكلات مفاتيح ، ويده اذا امتطت الاقلام بارت الغمائم ، واذا اتشحت بالاعنة بارت الريح " . (١)

وأظهر اعتناء شديدا بالجناس فبعثره في معظم رسائله واستعمله تاما وناقصا ومشتقا ومصحفا واصلا فيه الى درجة من التكلف في بعض الأحيان كقوله : " لا زال سائغ (٢) العطاء ، سابغ (٣) الغطاء ، ظاهر الجلال ، طاهر الخلال ، وسيع المجال ، وشيع (٤) المحال (٥) ، مكبوت الأعداء ، مكتوب الاعداء (٦) ، يصول الاسلام منه بالسهم النافذ النصير والشهم الناقد البصير " (٧) حيث جانس مجانسة تصحيف واظهر كلمات كل سجعتين بمظهر واحد تقريبا اذا ما جردت من نقاطها (٧) وقوله في رسالة أخرى حيث جمع بين الجناس الناقص والمشتق : " ولا زالت اوقاته مقرونة بالسرور وساعاته مصروفة بالحبور ، شوق الهائم (٨) الولهان الى لذيذ الوصال ، والحائم (٩) العطشان الى الماء الزلال ، وحنيني اليه حنين الابل الى اعطانها (١٠) ، والغرباء الى اوطانها ، وكلفي به كلف الساهر الحائر الى تبلج وجه الصباح ،

---

(١) المصدر السابق ، ١٠
(٢) من فعل سوغ ، السائغ العذب
(٣) من فعل سبغ ، اي كامل واف
(٤) من فعل وشع ، وشّع الثوب اى رقمه بعلم ونحوه
(٥) منجنون يستقى عليها
(٦) النصرة والمعونة
(٧) من ترسل القاضي الفاضل ، مخطوط مصور ، ورقة ٣٧
(٨) من فعل هوم كالذاهب على وجهه
(٩) من فعل يدور حول الماء بسبب عطشه ، ولا يجد ماء
(١٠) مبرك الابل حول الحوض ، والعطن بالنسبة للجمل كالوطن للناس .

والكلف بحميا الراح الى ارتشاف ثغور الأقداح ، بل كشوقه الى اعتلاق المعالي واعتناقها ، واصطباح كاسات المكارم واعتباقها ، وكيف لا أذوب شوقا اليه وحنّة عليه وقد فارقت منه الطائر الميمون الذي لم أزل أقابل منه كل يوم طائر اليمن والاقبال والوجه الكريم الذى يجمع بين الجمال والاجمال ".[1] نجانس جناسا مطرفا بين الهائم والحائم ، واعطان وأودان ، واعتناق واعتباق واعتلاق . وجناسا مذيلا بين الجمال والاجمال ، وجناس اشتقاق بين اليمن والايمان .

ومن انواع الجناس الأخرى التي استعملها في نثره ، الجناس المركب كقوله " والشرق يهتدى بأنواره ، بل ان ابدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ".[2] حيث جانس بين كلمة انواره جمع المصدر " نور " وبين ان واره ، الفعل ، بمعنى أخفه ، وقوله في أخرى ، فعدل الى منجنيته التي أمل صاحبها منها منجانيقه " حيث جانس بين كلمة منجنيق ، احدى الآلات الحـربية ، ومنجانيق[3] . والجناس المعكوس كقوله " مع من انضم اليهم من النقاف واطراف وأوشاب وأوباش ".[4] حيث جانس بـين أوباش وأوشـــاب .

---

(١) الدر النظيم ، ورقة ١٢

(٢) ابو شامة : ٢ ، ٤٠

(٣) النيق أرفع موضع في الجبل

(٤) القلقشندى : ٦ ، ٥٠٧

ولم يكتف القاضي الفاضل في نثره بالسجع والجناس، وكأنه اراد ان تكون كل رسالة من رسائله قطعة مستقلة من الزخارف والتضمينات التي راح يستمدها من ثقافته الدينيه والادبيه والتاريخيه ويحشرها في رسائله حشرا بحيث يرى القارئ لمعظمها مجموعة من آيات القرآن المضمنة هنا وهناك، ومن الفاظه ومعانيه المنتشرة في مواضع عديدة من رسائله، وابياتا عديدة من الشعر المنظوم والمنثور، بعضه من نظمه وبعضه مقتبس عن غيره من الشعراء، وبعض الفاظ العلوم واللغه. كما يلاحظ كثرة الاشارات الى اسماء انبياء واشخاص ومعارك واحداث حصلت في الاسلام.

ومن امثلة تضمينه للقرآن قوله في احدى رسائله " ولقد ذكرنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون " " سلام قولا من رب رحيم " فروح وريحان وجنه نعيم " وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه ".(١) حيث تدرج من القرآن الى مايريد نثره محافظا على وزن القرآن الذى بدأ به. ومن اشاراته الى بعض الفاظ القرآن قوله " سعد لا يصوّح عنه المرتع الاخضر، وامن لا يحزنه الفزع الاكبر، مطاع ينقاد بتصريفه الابيض والاسمر، محبوب القلم حتى لو عاداه السيف لقيل ان شانئك هو الابتر " (٢) تصرف بألفاظ القرآن بقوله " ان شانئك هو الابتر ". واشاراته الى معاني القرآن عديدة كقوله " وصل الكتاب الشريف فأدركنا به غايه الحرص وكان كيعقوب اذا بشر بالقميص، ووقف له وعليه وعلم ما تضمنه واشار اليه ".(٣)

---

(١) المصدر السابق، ٦، ٥٠٨
(٢) كتاب فيه من كلام الفاضل، ١٨٩
(٣) الدر النظيم، ٢٢٥ ورقة ٢٠

ومن اشاراته الى الفاظ اللغة قوله " فالله يعيد لياليَ كانت بقربه اسحارا بل نهارا ، واياما بقيت في خدمته مواسم بل أعيادا كبارا ، وان تسمح الأيام بذلك فربما وعسى وظن يد نو بهم ولعلما ، وأرجو ان يكون ذلك قريبا " (١) وقوله " والله يفتح من بلاد الكفر كل مبني على الضم " . والى بعض المصطلحات فقه اللغوية قوله " وكيف لا يكون ذلك وقد فارق العالم المجموع في واحد ، والمجد المنتظم في شاهد ، وبنيان الكرم المستقل بشائد ، والنفوس كالأسماء لا يتم الا بصلة وعائدة " (٢)

والى بعض التعابير البلاغية قوله " وانكرت كثيرا مما كنت اعرفه مني ومن الناس ، وتناوبت عليّ النوائب من مجنّس ومطبّق ، فلا تسل عن سواد في القلب وبياض في الرأس " . (٣) والى بعض غزوات المسلمين قوله " وكفى اشارة الى انه مكان الغزاة ومقرها ، ومستودع الفريضة ومستقرها ، ومجاورته لتبوك وغزاتها آخر الغزوات النبوية ، والى طريقه انتهت الخطى الحميدة المحمدية " . (٤) ومن اشاراته الى احداث واسماء وردت في الأخبار والقصص الديني قوله عن أسرى المسلمين " وكانوا في سجون اهل التثليث كيونس في الظلمات الثلاث ، وكيوسف الا انهم في عقلة غضب الذكور لا في عقله طرب الاناث ، وفي فوهه الجب شقه باب لا يأذن الليل في ابتسامتها عن نهار " . ويقول فيها ايضا " فما طال جناح الجنح ، واستنار مصباح الصبح ا لا

---

(١) المصدر السابق ، ١٢

(٢) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥٥ — ٥٦

(٣) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ٢٦٣ — ٢٦٤

(٤) الفاضل من كلام الفاضل ، غير مرقم

والربوبية قد اجارتهم من الديوية ، وبياض يد الليلة يخبران المانويه " (١) اشار في قطعته هذه الى النبيين يوسف ويونس، والى المانوية احدى الديانات الفارسية . ومن امثلة اشاراته الى بعض ادباء العرب قوله ورأى ما لو أنشدة ابن حجر لصار كالحجر ، وما لو تيس بن قس لعلم انه ما بعث أمة واحدة الا انه خجل واستتر ، ولا لوم عليه لو سمع ونظر " ، فاشار الى امرئ القيس الشاعر الجاهلي وقس بن ساعدة الخطيب الجاهلي ايضا .

وقد جره ولعه بالشعر لأن يدخله بكثرة في نثره بحيث يطغى في بعض الحالات على الصورة النثرية للكتابة ، كما وصل به تكلفه في استعماله ان انشأ رسائل على أبيات من الشعر مضافة الى قرينة من النثر ، وانصاف أبيات من الشعر مضافة الى قرينتها في النثر ، وكان يركب احيانا قرينة كاملة من النثر على بيت او نصف بيت من الشعر .

فمن امثلة تضمينه الشعر في نثره قوله في ثلاثة كتب وصلته من العماد " فلله درها ثم لأوليائها درها ثم لاعدائها دَرْؤُها ، لقد أثرت فنثرت في القرطاس جواهر مددت اليها يد الالتقاط وتزينت عيني في أوسع من صدرها وتركت خاطري في أضيق من سم الخياط :

واخذت اطراف الكلام فلم تدع   قولا يقال ولا غريبا يدعى

فهي بين غوص وترق ، هذا يثير الدر وهذا يثير الدراري ، وهذا يتبلج في عين السوار المصوغة وهذا يتبرج لاعين السواري ، وذكرتني هذه الكتب ثلاثة ابي تمام اذ يقول :

---

(١) المصدر السابق ٩٤

بثلثة كثلثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

وثلثة الدلو استجيد " الماتح) اعوادها ورشاؤها وأديمها [1]

ومن تضمينه البيت من الشعر لقرينة من النثر قوله : لقرينه

وصل من الحضره

كتاب به ماء الحياة ونفعه الـ حيا فكأني اذ ظفرت به الخضر

فوقفت منه على

عقود هي الدر الذى انت بحره وذلك ما لا يدعي مثله البحر

ورتعت فيه في

رياض يد تجني وعين وخاطر تسابق فيها النور والزهر والثمر

وكرعت منه في حياض

تسر مجانيها اذا ما جنى الظما وتروى مجاريها اذا بخل القطر [2] .. الخ

ومثال لتضمينه انصاف أبيات من الشعر قوله :

وصل كتاب مولاى بعدما اجاب المنادى للصلاة فأعتما

فلما استقر لـــــدى تجلى الذى من جانب البدر أظلما

فقـــرأته بعين اذا استمطرتها امطرت دما

وســألته فسألت مصروفا على النطق أعجما

(١) من ترسل القاضي الفاضل ، ٥١ — ٥٢

(٢) القلقشندى ٤ : ٢٧٦ — ٢٧٧

ولم يرد جوابا وماذا علـيه لو أجاب المتـيما

ورددته قراءة نعوجلت دون الحلم ان اتحلما

وحفظـته كما يحفظ الحر الحديث المكتما [1] .. الخ

حاول في رسالته هذه ان يعارض رسـالة لبديع الزمان الهمذاني .

ومثال لتركيبه ترنية كامله من النثر على بيت ، او نصف بيت من الشعر قوله :

ورد كتاب الحضرة بعد ان عـددت الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع الصديق } وقد عشت دهرا لا اعد الليالي

وبعد ان انتظرت الغيظ والشـتاء لفصـل ربيعه . . . } فلما للنوى ترمي بليلي مراميا ؟

واستروحت الى نسـيم سحره اذا الصيف القى في الديار المراسيا

ومددت يدى لاقتطاف ثمره فلله ما أحلى وأحسن المجانيا [2]

وكتابة رسائل اخوانية بهذه الطريقة تدل على الكثـير من التكلف والتصـنع .

وأظهر ميلا الى الاطناب في معظم رسائله ، فهو يتحدث ويكرر ويدور

حول نفسـه كثـيرا ، فتأتي بعض رسائله فثة باردة تحمل الفاظا عديده وجملا كـثيرة

لتدل على معنى بسـيط ، فاسمعه يقول في احدى رسائله الى العماد مخبرا باستلامه

---

(١) المصـدر السابق ، ٢٧٧ — ٢٧٨

(٢) المصدر نفسـه ، ٢٧٩

كتابا منه : " قدم على المملوك من الديوان كتاب شريف اضاءت الخواطر لمقدمه ، وصارت سماء بأنجمه وكانت كنانة لما اشتملت عليه من اسهمه ، وترقى اسطره في درجات تنال اسباب السماء بسلمه ، وتوضحت جادة التوفيق بمعلمه وخطر في السعادة بمعلمه وعنت وجوه السيوف اجلالا لقلمه وتلاه فكأنما تلا منزلا او مشافهة فكأنه شافه مرسلا ، وورده فكأنما ورد منهلا ، وتقلده فكأنما تقلد منصلا .. الخ ".(1)

وأما الظاهر البارزة في بناء جملته ففصله بين المبتدأ والخبر بجمل عديدة كقوله مثلا " سبب اصدار هذه الخدمة ادام الله نعمة المجلس وضاعف جلاله ، وقرن بالنجح آماله ، ورادف بالمنح اقباله ، وأسبغ بدوام النصر ونفاذ القدر ظلاله ، ولا زالت قطوف النصر لعزماته جانية ، وصروف الدهر بيقاء أيامه فانية ، وأوداؤه بنعمته غانية ، تجدد يد صبابة صبابة شوق متضاعف ".(2) حيث فصل بين المبتدأ في الجملة (سبب) وخبرها (تجديد) بعدة جمل استعمل فيها صيغتين في الحديث ، وفصله في جمل عديدة بين الفعل والفاعل ، او الفاعل والمفعول به كقوله : " ورد ادام الله ورود المسار والمبار على المجلس السامي ، وأعز به الاسلام ، وجمل به الايام ، وأغنى بعلاماته عن الاعلام عورته سيوف الممالك التي يديرها بما في يده من الاقلام ، (وجمل) رحله وآمن سبله ، وأعلى محله ، ووصل حبله وسر بلقائه اولياءه وأهله ، كتابه الكريم " .(3) فصل بين الفعل (ورد) وفاعله كتابه بجمل عديدة .

---

(1) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ١٥٧ — ١٥٨

(2) الدر النظيم ٢٢٤ ورقة ١٨ — ١٩

(3) كتاب فيه من كلام الفاضل ، ورقة ٥٣

ومن مظاهر بناء جملته ايضا الالتفات وتنويع صيغه الحديث عند ما يتطلب منه الموقف ذلك ، وكان هذا اكثر مايقع في رسائله التاريخية ، ففي رسالة رسالته لحصار الفرنج مدينة عكا عام ٥٨٥ هـ بدأ بشرح الوضع في البلاد وقوة الفرنج واستماتتهم في الحرب في صيغة الماضي ثم راح يتضرع الى الله ان يخفف من شرهم بقوله : " اللهم أخفر جواره ، واصرف جوره ، وأخلف وعده ، واكسر ضمانه ، وانكصه على عقبه ، وعجل في الدنيا والآخرة منهم تبابه ، وما بدأتنا من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه ، ثم يمضي يقول للخليفة وفي دون ما الدين الأموال : ويوجب لامام هذه الأمة ان يحفظ عليها قبلتها ، ويزيح في قتل عدوها علتها ، ولولا ان في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح ، لقال ما يبكي العين وينكي القلوب وتنشق له المرائر ، وتشق له الجيوب ... ثم ينتقل ليقول " فيا عصبة محمد صلى الله عليه وسلم ، أخلفه في امته بما تطمئن اليه مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فانا وان المسلمين عندك ودائعه — وما مثل الخادم نفسه في هذا القول الا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجى بالقول صادعا " .(1)

بدأ حديثه في هذه الرسالة بصيغة الماضي ثم أخذ يدعو ، ثم عاد الى صيغة الماضي ، ورجع ليطلب من الخليفة ببغداد المساعدة بصيغة أخرى .

---

(1) القلقشندي ٧ ، ١٢٦ — ١٣٠

وردّ العجز على الصدر كقوله في احدى المناسبات : " ولم أزل اتجلد الى ان دنعني التجلد الى التبلد ، وادافع الاوقات الى ان دنعتني ، واقسالب الضرورات الى ان غلبتني ، فلو نظرت الامر من أوله فعلت ما فعلت في آخره " (١)

وتكرير بعض الألفاظ مرلتعاقبد " في الجملة ذاتها كقوله في احدى رسائله " فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع في فتح الساهل ، وينفق ان شاء الله مال القسطنطينية في فتح رومية ، والملوك كلهم وكلاءه وامناءه على خزائنهم الى ان يسلموها اليه " (٢)

٢ـ المحسنات المعنوية

واعتنى بمعانيه اعتناءه بألفاظه حتى اعترف له بعض الأدباء بالقـدرة على ابرازها بشكل جميل ، كالقلقشندى في قوله " ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا بواب " (٣)

وحاول ان يجملها ما استطاع بالمحسنات فلجأ في أحيان كثيرة الى الطباق والمقابلة والتورية . وكان يطابق احيانا بين كلمات ويقابل احيانا أخرى بين الجمل في نص طباقاته قوله " فأتعدهم واقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا اليهم وبغضها اليك ، وصعبها عليهم وهونها عليك ، وأمسك ايديهم وأطلق يدك ،

---

(١) [illegible] ابن نباتة ، كتاب فيه من كلام الفاضل ، ١٠٧
(٢) ابو شامة : ٢ ، ١٧٧
(٣) القلقشندى : ٢ ، ١٨٩

وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، واشقاهم وأنعم عليك ، وثبطهم وعلا وسيرك " . (١)
ومنها ايضا قوله " ولم يؤخر فتح البلاد الا ان فرق الكفار بالشام استصرخ بأهل
الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا، وزرافات ووحدانا،
وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا " . (٢) ومثل من توريباته
العديدة قوله " أصدر الخادم هذه الخدمه من ثغر عكا وقد تبسم لقدومنا
فأمحى ليل الكفر عن جانبيه " . (٣) حيث ورى في كلمة ثغر حين استعملها بمعنى
الثغر اى المدينة المتطرفه الموقع، والثغر بمعنى الفم .

الصور البيانية

واحتشدت بعض رسائله " التاريخية بشكل خاص " بالصور والتشابيه
والاستعارات والمجازات والمعاني المشخصة التي كان يجيد فيها ويسمو احيانا وينحدر
حينما يحاول ان يعقدها بشكل يصل الى حد المبالغة ويصعب معه تحليلها الا
بأعمال فكر شديد . وها هو في احدى رسائله ، يحاول ان يصف الطبيعة فيخفق الى
حد ما مع ان المجال للابداع امامه واسعا ، لماذا ؟ لانه اهتم بالشكل قبل كل
شيء وبايراد صور متلاحقة متتابعة ومعـــان معقـــدة فيقول من "بعرين " (٤)

---

(١) ابو شامة ٢ : ١٦٦ ، ١٦٧ - ١٦٧
(٢) المصدر نفســه ، ٢٣٣
(٣) الفاضل من كلام الفاضل ، الصفحة غير مرقمة
(٤) حصن في سوريا سار اليها صلاح الدين عام ٥٧٠ هـ لفتحها "ابو شامة ١ ، ٢٥٠ "

" حيث أخرجت السماء أثقالها ، وفتحت من عزاليها اقفالها ، وركضت خيل الرعد لابسة من الغيم جلالها ،[١] وثوب الليل بالغمام غسيل ، وشبح الظلام بسيف البرق قتيل ، وغراب الأفق بازء الا انه في قوس قزح نازء [٢] وكأن عقارب الظلماء بالثلج أفاعي ، فليل قرنيها ليل السليم [٣] وكأن مواقع الرعد قعاقع،[٤] وحلى الغواني في يده ، فهو لا ينام ولا ينيم . وكأن الصباح قد ذاب في الليل قطرا ، وقد ابتل جناح الليل الغدف [٥] فما يطير ، وأبطأ حمام الصبح خلاف ما نحاه نوح في رسالته نوح فما يسير .. ويقول " فأما الخيام التي انضجت جلودها ... الشمس ، واسودت ثم نضحت [٦] بدموع الغمام فتراخت اجفانها ، وبعد ما اشتدت ، فما هي الا أعين سال منها بالدموع كحلها ، وخيول وهم ظل من الاطناب شكلها [٧] ولا يزال الخصام بينها وبين الاهوية الى ان تشق من حزنها كما شقها السحاب طرسها .

---

(١) غطاء

(٢) قافز

(٣) اللديغ

(٤) صوت تضارب السلاح

(٥) الغراب

(٦) رشحت

(٧) رباطها

نظرة الى هذه القطعة القصيرة تظهر لنا ولع القاضي الفاضل بالاستعارات والتشابيه وتعقيده لها .

فمن استعاراته في هذه القطعة :

استعار للرعد خيلا ، بقوله " وركضت خيل الرعد " ، ولعله اعتمد هذه الاستعارة على ان صوت الرعد يشبه صهيل الخيل .

كما استعار لليل ثوبا ، بقوله " وثوب الليل بالغمام غسيل "

واستعار للظلام شبحا ، وللبرق سيفا ، بقوله " وشبح الظلام بسيف البرق قتيل " .

واستعار للأفق غرابا " وغراب الافق باز " على انه كان في سواده كالغراب .

واستعار للظلماء عقارب (وكأن عقارب الظلماء) على ان العقارب سوداء في لونها كالظلام ، كما استعار لليل جناحا بقوله " وقد ابتل جناح الليل الغدف " .

واستعار للغمام دموعا بقوله " ثم نضحت بدموع الغمام " يقصد المطر .

واستعار للخيام جفونا ، بقوله " فتراخت اجفانها " كما استعار لها جلودا بقوله " فأما الخيام التي نضجت جلودها " ، فالخيام تصنع من الوبر ، استعار لها جلودا ليشخصها .

ومن تشبيهاته ، " شبه عقارب الظلام بالافاعي " استعارة وتشبيه .

وشبه صوت الرعد بصوت السلاح المتضاربة في قوله :

وكأن مواقع الرعد قعاقع

شبه اوتاد الخيمة ، بالشكال التي ترابط بها ارجل الجياد

، يبدو من وصفه ان الوقت عند طلوع الفجر ، فالمطر شديد وصوت الرعد قوى كصهيل الخيل اللابسة من الغمام جلالا ، وثوب الليل الذى بدأ يختفي مغسول بالامطار ـ الشديدة ، والظلام ينجلي بين آن وآخر بسبب البرق ، الا ان الافق مسود كالغراب ، بسبب الغيوم المتكاثفة فيه ، وهذه الغيوم التي شبهها بالغراب لسوادها تشبه الباز في شكلها وتثب داخل قوس قزح الذى أخذ يظهر في الافق ، وكأن الثلج في لمعانه يظهر في الظلام كالافاعي بين آن وآخر ، فليكن ليل الشخص الموجود في الظلام ليل اللديغ . اى ان الشخص الموجود في الظلمة يجد ليله طويلا كليل الملدوغ الذى يصاب بالالم والارق فيجد الليل طويلا . وصوت الرعد يشبه صوت تضارب السلاح فلا يسكت ولا يدع غيره ينام ، وكأن الصباح قد ذاب في الليل فكان مطرا ، وكأن جناح الليل " الذى يشبه الغراب " قد ابتل فلا يستطيع الليل ان يطير ، اى ان ينجلي (ويزول) ، يشبه هنا الظلام الناشئ من الغمام الشديد بطائر ابتل جناحه بالمطــر فلا يطير . والصبح متأخر في مجيئه بسبب الغيوم فكأن (حمامه) اى بياض الصباح بطئ في مجيئه ، فالظلام مسيطر بسبب الغمام الشديد في الجو .

ثم ينتقل ليصف الخيام التي انضجتها حرارة الشمس ، ثم ابتلت بالمطر فنضحت اجفانها ، وربما يقصد بأجفان الخيمة الفتحات المتروكة فيهـا التي تكون للخيمة كالعيون ، واذا كان لهذه الفتحات ستائر فانها تكون للعيون كالأجفان .
فعندما ينزل المطر على قبة الخيمة ينحدر ويصير يقطر عن جوانبها ، فهذه النقط المتساقطة من جوانب الخيمة كالدموع ، والغبار الذى تحمله معها عن سطح الخيمة يشبه كحل العيون الذى يضيع مع البكاء ، والهواء العاصف يكاد يقلع الخيام المثبتة بالأوتاد ، والتي يشبهها بالخيول التي تربط سيقانها في شكال .

هذا المعنى الحرفي للقطعة ، ولكنّا لو ألقينا نظرة اجمالية على الصورة لمكنا ان نتصور الظلام الشديد المخيم بسبب الغمام المتكاثف في السماء ونسمع الرعد الشديد ونرى البرق الذى يخطف الأبصار بقوته بين آن وآخر .
كما نستطيع ان نتصور الخيام والمطر يتساقط عليها والهواء الشديد يعصف بها ويكاد يقتلعها . الا ان كاتبنا أبى الا ان يعقد الصورة فأكثر من زخرفتها وأضاع رونق الصورة التي أراد نقلها ، وكان من الممكن ان يضعها في قالب أملس وأسهل فتكون اجمل وأقرب الى الذوق .

ولا داعي لايراد صور اكثر من هذه لكثرتها ، ولكنها تعطي ولا شك فكرة عن مذهبه في البيان .

تقييم نثر القاضي الفاضل

بالغ القاضي الفاضل في استعمال الزينة اللفظية والمعنوية في اسلوبه ، ولم يترك رسالة واحدة تفلت من بين يديه دون ان يزخرفها بلون من ألوان البديع او البيان ، فجاءت اكثر رسائله غثة متكلفة لكثرة ما ورد فيها من زخارف حجبت ما بداخل الرسالة من معنى وأظهرتها وكأن هدفها الرئيسي الاسلوب والشكل لا الجوهر ، الا انه لم يقف متفردا في هذا الميدان في الكتابة ، بل تأثر بروح العصر وبالطريقة الانشائية السائدة فيه والتي سادت في العصور السابقة له في المشرق الاسلامي ومصر حتى وصلت درجة من الاكتمال والنضوج على يديه ربما كان لطبيعته وثقافته أثر فيهما . فهو طموح منذ صغره يريد اعتلاء منصة المجد منذ بدء عهده في الكتابة ، فراح يزخرف رسائله وينمقها بشيء من المقدرة والبراعة مظهرا تفوقا على غيره من الكتاب العاملين معه ليلفت الانظار اليه . وقد كان له ما أراد وتوصل بكتابته الفنية الى القمة في العصر الصلاحي . وساعده ذكاؤه وذاكرته القوية على الاستفادة من ثقافته في نثره فاستغلها في تلميحاته واشاراته وأكثر منها في رسائله حتى برز استعماله لها في رسائله وعدت من خصائصه الجوهرية . وقد تميز القاضي الفاضل باسلوبه على غيره من الكتاب بتسخيره الاستعارة الشعرية لخدمة الاسلوب النثري مع تطويل في الجملة وتداخل في السجع . لذلك نسب اليه بعض الكتاب والمؤرخين طريقة خاصة بالكتابة سموها بالطريقة الفاضلية حازت اعجاب بعض الادباء

والبلاغيين المعاصرين والتالين له وجعلتهم يشيدون بقيمتها وبمهارة الفاضل فيها ،

فقال العماد الاصفهاني " صاحب القران ، العديم الاقران ، وواحد الزمان ، العظيم الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ما سمع في الاوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره ، او جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يخترع الافكار ، ويفترع الابكار ، ويطلع الانوار ، ويبدع الازهار ، وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السلك بآلائه ، ان شاء انشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قس عند فصاحته وأين قيس في مقام حصافته ، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته " ، (١) وقال ايضا " وكانت كتابته كتائب النصر ويراعته رائعة الدهر ويراعته بارية للبرية وعبارته نافثة في عقد السحر ، وكانت بلاغته للدولة مجملة وللمملكة مكملة وللعصر الصلاحي على سائر الاعصار مفضلة ، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة ، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة ... وهو الذى نسخ اساليب القدماء بما أقدمه من الاساليب وأغرب به من الابداع ، وابدعه من الغريب وما الفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته ، ولا ردد لفظا في مخاطبته ، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة مبتدهة لا مفتكرة بالعرف والعرفان معرفة ولا نكرة " . (٢) وقال عنه السبكي " امام لواء الأدباء وقائد لواء اهل الترسل بل وصاحب صناعة الانشاء ،

---

(١) الاصفهاني : ١ ، ٣٥ — ٣٦

(٢) ابو شامه : ٢ ، ٢٤١ — ٢٤٢

أجمع أهل الأدب على ان الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله ، ولا من قبله بأكثر من مائتي عام وربما زادوا ، وهو من بينهم كالشافعي وأبي حنيفة بين الفقهاء ، بل هو له أخضع لأن اصحاب الامامين قد يتنازعون في الأرجحية فكل يدعي ارجحية امامه ، واما هذا فلا نزاع من اهل صناعته فيه " . (١)

وانتبه بعض الكتاب الى انه لم يكن مجددا في طريقة الانشاء كابن خلكان الذى قال في حديثه عن ابن ابي الشخباء " ويقال ان القاضي الفاضل ، رحمه الله ! كان جل اعتماده على حفظ كلامه وانه كان يستحضر اكثره " (٢)
ولا شك ان لاشارة ابن خلكان هذه قيمتها في دراستنا لاسلوب القاضي الفاضل واصدار حكمنا عليه . ولكنا لا نستطيع ان نؤيدها او ننفيها وما بين ايدينا من رسائل ابن الشخباء لا يكفي لذلك . فقد وردت له بعض الرسائل في معجم الأدباء وفي جمهرة الاسلام (٣) تدل على شيء من التشابه في اسلوب الكاتبين ، فابن الشخباء لا يحيد عن السجع ، ويكثر من استعمال الجناس ومن التضمين والاشارات وتشخيص المعاني والاستعارات والتشابيه ، وهذه كلها من خصائص اسلوب الفاضل ، غير اننا رأينا ان هذه من الخصائص التي وردت في النثر المصرى قبل ابن ابي الشخباء ،

---

(١) السبكي : ٤ ، ٢٥٣
(٢) ابن خلكان ، ١ ، ٢٦٨
(٣) مخطوط

ولربما لو تمكنا من العثور على عدد أكبر من رسائل سابقي ابن ابي الشخباء لتمكنا من مقارنة رسائل الفاضل برسائلهم بالاضافة الى رسائل ابن ابي الشخباء ، ولكن الظاهر ان ابن الشخباء بز غيره من الكتاب في هذا الفن وبرع في استخدام المحسنات اللفظيه والمعنويه حتى " بهر معاصريه بفنه وجعل المؤرخين يشيدون بفضله " . (1) وقد سبق الفاضل الى التأثر بابن ابي الشخباء ابن قادوس ، استاذ الفاضل ، كما يظهر من بعض سجلاته التي وصلتنا ولكن هذا التأثر يدل ايضا على روح العصر والتأثر بالبيئة وباسلوب الكتابة الشائع الذى امتد الى ما بعد القاضي الفاضل . لذلك لا نستطيع ان نقول انه تأثر بابن الشخباء وحده بل بالنثر الشائع بوجه عام . وقد كان لمركزه كوزير دولة صلاح الدين وككاتب رسمي في الدوله اكبر دعاية في ازدياد شهرته وثناء الحكام والادباء عليه والاهتمام بتقليد نثره والسير على نهجه .

مقارنة اسلوب الفاضل بأساليب بعض معاصريه

عاصر القاضي الفاضل جماعه من الادباء وكتاب الدواوين كانت لهم صلات ومراسلات سار معظمهم فيها على الخط الذى سار فيه القاضي الفاضل من استخدام البديع في الكتابة ، كان اكثرهم أسرا بها عماد الدين الاصفهاني الذى أسرف في الجناس وزاد بتعقيده له على القاضي الفاضل حتى توصل فيه الى درجة

---

(1) حسين ، ٣٢٩

من الغموض والابهام . وقد شرح اسلوبه في الكتابة خلال رسالة ارسل بها الى القاضي الفاضل قال فيها "وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والترصيع ، والمقابلة ، والموازنة والتوشيع " . أورد بعضها رسالة ملآى بالتنميق والزخرف والاشارات والتلميحات بشكل يدعو الى الملل كأن يقول مثلا " ما ظفر مدجج[1] الاظلام بالسنا ومحوج الاعدام بالغنى ، ومزعج الغرام من وصل حبيبه المفارق بنجح المنى ، ومخرج السقام من وصف طبيبه الحاذق ببرء الضنا ، والمعوز المعور[2] بتبر الجدة بعد الاملاق ، والمنهج[3] المبهج بعز الجدة في الاخلاق " .[4]

ويلتقي العماد الاصفهاني مع القاضي الفاضل في عدم التفرقة بين الكتابة الديوانية والفنية التي فطن اليها الكتاب الاقدمون وفرقوا بينهما كبديع الزمان الهمذاني ، وقد أضاعت للفاضل جزءا من قيمة رسائله التاريخية ، وكذلك للعماد ، خاصة في كتابه الفيح القسي في الفتح القدسي الذي بناه على البديع وطغى باسلوبه فيه على التاريخ نجاه مصطنعا بعيدا عن الطبع والذوق بالرغم مما يحويه من قيمة تاريخية ، كقوله في احدى صفحاته للتمثيل ، " وقد سد طريق الفلق فيلقه الطارق ، وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق ، وجال بالوجل وجاء بالوجيب ، وثار لثأر الصليب السليب ، وقد وقد جمر جمعه ، ورتق فتق الصبح رقع نقعه ، وما فض الفضاء ختام قتامه ،

---

(١) شديد الاظلام
(٢) الذى يحتاج ولا تقضى حاجته
(٣) الثوب الخلق
(٤) الاصفهاني ، ١ ، ٤٤ — ٥٠

حتى ضم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه ، والرجاء محقق الا ان الألماني مخفق بالمامه ، والاسلام مشفق من اسلامه ، والدين موثق بنصرة امامه ، وعصمة الله الواقية الواقية من ورائه وامامه ، والله الكافل بعلاء اعلامه واحكام احكامه " . (١)

وقد فطن زميل ثالث للقاضي الفاضل والعماد ، وهو بهاء الدين ابن شداد ، الى ضرورة الفصل بين هذين الفنين من الكتابة وألف كتابا بالتاريخ في سيرة صلاح الدين (٢) بمنتهى البساطة والسلاسة دون ان يخلو من الدقة فجاءت كتابته أفضل من كتابة زميليه وأقرب الى الواقع وطبيعة التاريخ ، وتفاوت باقي كتاب العصر بين مستعبد للكتابة الديوانية ومائل الى الكتابة النثرية البسيطة ، الا ان الكتابة الديوانية الاسلوبية كانت اكثر شيوعا على العموم .

أثره فيمن جاءوا بعده من الكتاب

ظل الاسلوب الفاضلي مسيطرا على الكتابة الديوانية والفنية حتى عهد غير بعيد عنا ، ولعل دوران رسائله بين فئة معينه من الادباء يفسر لنا أثرها في الكتابة فقد كانت تصدر عن ديوان الانشاء المصرى الى غيره من الدواوين في البلدان الاسلامية لتقرأها جماعة مختصة بهذا العمل وتحفظ نسخا عنها في الديوان المصرى وغيره من الدواوين مما فسح المجال لمن جاءوا بعد الفاضل من الكتاب الديوانيين

---

(١) الاصفهاني " الفتح القسي " ، ١ ، ٤٧

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

بشكل خاص ليطلعوا عليها ويتأثروا بها وبغيرها من الكتابات الشبيهة لها ويحاكونهـا ، امثال فخر الدين ابن لقمان [١] ، ومحيي الدين ابن عبد الظاهر ، [٢] وفتح الدين ابن عبد الظاهر [٣] وشهاب الدين محمود الحلبي [٤] وغيرهم ممن اشتهروا في الدواوين المصـرية .

وهكذا فردان أثر الفاضل كان بعيدا الا انه لم يفد الكتابة العربية بقدر ما أضر بها ، لأن ناحية الشكل تغلبت على كل ما عداها حتى جاءت عصور الانحطاط فأصبح الكتاب يهتمون بالزخرفة فقط لاثبات قدمهم بالناحية الاسلوبية . ومن هنا اصبحت الثورة لازمة على هذه الأساليب في عصرنا ، فاشتركت الصحافة والأدباء في تغيير الاسلوب ليكون مرسلا مرة أخرى كما كان لدى الجاحظ .

اما أول من فطن من القدماء الى ضرورة تغيير هذا الاسلوب ونقده بصراحة فابن خلدون في مقدمته حين قال " والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ، ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته بمقتضى الحال ، فان المقامات مختلفة ، ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب وايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة او كناية واستعارة ، واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام

---

(١) ولي ديوان الانشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب وكتب لبعض تقليد السلطان بيبرس والمنصور قلاوون . توفي عام ٦٩٣ " القلقشندى ٧ ، ٦٧ " .
(٢) من الكتاب المتأخرين ، توفي عام ٦٩٢ هـ " الكتبي ١ ، ٤٥١ "
(٣) ابن محيي الدين كتب في الانشاء وساد في دولة المنصور قلاوون ، توفي بدمشق عام ٧٩١ " المقريزى ٤ ، ١٣٠ " .
(٤) من الكتاب المتأخرين ، أورد له القلقشندى عددا من السجلات في صبح الأعشى .

حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساخ خطوبه ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من التزويين بالأسجاع والألقاب البديعية " . (١)

---

(١) ابن خلدون ، ٥٥٠ ، ٥٠١

للقاضي الفاضل مجموعة كبيرة من الأشعار ، حدثنا عنها بقوله : " اني من مدة سنتين وما قاربهما وهي المدة من تاريخها نرح بهجرة وكدى وعلو سعر شعرى ، وقد نظمت مائتين وخمسين الف بيت من الشعر بشهادة عيانها وحضور ديوانها مثل قولي في باذهنج شديد الحرور كأنما يتنفس نفس مصدور . وما يناهز الف بيت كل بيت مقطوع منها يخرع العقول اختراعه ويعفي المحاسن بديع ابتداعه ، ومثل قولي في رجل طويل الآذان كأنهما في رأسه خفّان او قد عجّل له منهما نعلان ما يقارب الف بيت تجاوزت بهما وأوريت وما أدخلت منها الشاعر الى بيت ومثل قولي في رثاء الوطن الذى درجت من وكره ، وخرجت نلم أخرج عن ذكره ما يناهز عشرة آلاف بيت ، ومثل قولي :

في مدائح منصوصة   وأهاجي مخصوصة ".(١)

وقدر سبط ابن الجوزى ما قاله القاضي الفاضل في المدح بمائة الف بيت .(٢)

وقد احتفظت بعض المراجع الأدبية والتاريخية بقسم من شعره ضئيل بالنسبة لما ذكر عنه . كما جرت مؤخرا محاولة لطبع الجزء الأول من ديوان شعره ، قام بها الدكتور احمد بدوى معتمدا على مصادر معينة ومغفلا مصادر أخرى امثال مطالع البدور للغزولي ، والغيث للصفدى ، والأعلاق الخطيرة لابن شداد ، تحتوى شعرا له كان حريا به ان يضيفه الى الديوان .

---

(١) الغزولي ١ — ٤٧

(٢) سبط ابن الجوزى ٨ ، ٣٠٤

القاضي الفاضل

الشاعر

من مراجعة الجزء المتيسر من اشعار القاضي الفاضل ، نجد ان الاشعار التي قالها في العهد الفاطمي متوفرة ، وكذلك الاشعار التي قالها في عهد العزيز • وفيما بين ذلك ثغرة او ما يشبه الثغرة لان الفترة الكبرى التي كان يجب ان ينظم فيها هي فترة صلاح الدين ، وموقفه من الفرنج ، وربما يكون قال في تلك الفترة شعرا كثيرا الا ان ما تبقى من شعره لا يصور مجهوده في هذه الناحية تماما ، ولا نستطيع ان نقول انه اكتفى في هذه الفترة بالنثر •

اذا عددنا القاضي الفاضل كاتبا وسياسيا ومؤرخا وشاعرا ، فان الشعر أضعف مظاهره ، لماذا ؟ الانه لم يستطع ان يخرج من دائرة النثر ، أم لأنه كان محصورا في موضوعاته الشعرية ؟ اي ان البواعث العاطفية كانت فيها ضعيفه ؟ ولذلك يتمثل في شعر القاضي الفاضل سيئات عصره لا حسناته •

اما الصورة التي يؤديها الديوان فانقسام شعره في موضوعين كبيرين :

أ ـ الغزل

ب ـ المدح

ولكن هذه الصورة لا تزال غير كاملة لأن الجزء الثاني من ديوانه لم ينشر ، ثم ان ما راجعته من شعره في المصادر المتيسره يدل على انه كان ينظم في فنون أخرى كالوصف والخمر •

فمن شعره في الوصف مثلا ، قوله في شمعة

ولما أراد الليل ينظـر وجهـه تقدم ان يذكي له الشمع أعينا
وما هي الا أعين وجفونهـا دجاها وانسان السعود نهارنا
رياض دجى تتحن عند وقودها آزار نار تركب الشمع أغصنا
عجبت لروض منه بالنار يزدهي والا لزهر منه بالعين يجتني
فتكن الدجى والنور فيض دمائها اذا النار نصل والشموع لها قنا (١)

وقوله بالفرش والارائك والمساند

بساط يرى التيجان تهوى للثمه فما هو الا قبلة من مقبّل
اذا نشرت من نقشه لك روضة بدا فوقها من كفها لك جدول
وأفضل اجزاء الجسوم رؤوسها وأرجلها في وطء بسطك أفضل (٢)

ومن قوله في الخمر

لها منن تصفو على الشرب أربع وواحدة لولا سماحتها تكفي
سرور الى قلب وتبر الى يد ونور الى عين وعطر الى أنف
ولما رأينا الياسمين حبابها مددنا يمين القطف قبل فم الرشف (٣)

---

(١) الغزولي ١ ، ٨٤
(٢) المصدر نفسه ١ ، ٦٠
(٣) المصدر نفسه ١٥٧

على انا نؤثر القول ان هذا كان تجربة كلامية لأنه ما وصف به من تدين كان يحول بينه وبين ان يكون شاعرا مجربا في هذه الناحية . ولكن حيث كان يجب ان يكون الغزل وهو المبني على البواعث الذاتية أبرز الصورتين او جانبي الصورة نجد ان الغزل هو النوع المتهافت بينما المدح هو الموضوع الحيوى المبني على تشقيق المعاني والاندفاع الموسيقي ، لماذا كان الوضع كذلك ؟

في اعتقادى ان غلبة الصورة النثرية على غزل القاضي الفاضل هي التي جعلته نائرا في هذا الغزل ، كما ان تكرار الصور وتكرار الموضوع العبودى الذى يصور نفسه فيه ذليلا محروما هو الذى يعطي هذا الغزل صورة مبتذلة . ومن أمثلة الصور التي ابتكرها صورة الحية والعقرب التي لا يسأم من ترداد ها . وهذا لا يدل على وضع نفسي بقدر ما يدل على وضع حضارى . فالجارية والغلام كانا يصففان شعرهما بالطريقة ذاتها . وهذه الأوصاف وردت في ديوانه بما لا يقل عن عشرين موضعا ، أورد منها للاستشهاد ، قوله :

ويهجني خد حميت نعيمه	بقرينتين من العذاب الاعذب
الله جار قلوب أهل العشق من	وثبات حيته ، ومشي العقرب (١)

وقوله

لم أخف حيةً على الخد تسعى	لا ولا عقربا عليه يدبُّ
مِتُّ ضيقًا في الرقِّ رقَّ غليلي	مطلته بالوِرْدِ والوردُ نهب (٢)

---

(١) البيساني ١ ، ١٣٦

(٢) المصدر نفسه : ١٥

وقولـــه

أما ترى في خدها حـية وعقربا بشّـرتا بالعجيب

فحيةٌ بالوثب قد بشّـرت وعقرب قد بشرت بالدبيب (١)

وقولـــه

أما ترى في خده عقـربا ليس لها في ناره من فَرَق

وعقرّب قلتم ، فلا لا مِسٌ وقلتم : خدٌّ ، فلم لا أحـدق أحـرَق

سوداءُ في حمراءَ تحكي لنا بقية من ليلة في شَـــفَق (٢)

وقوله في الحية

ما حية في الخد يا شكـني سَكَنَتْهُ ، وأغْرَتْ خَلْفها نَزَقا ؟!

لم ترقَ خدّك وهي ما لَدَغَتْ الا وقد الجمتها بِرُقـــى

وجزاؤُها من رُقيةٍ نَسق قُبَلٌ يؤلفها الهوى نَسَقا (٣)

ومن الصور التي أولع فيها القاضي الفاضل في غزله ايضا ، قصة آدم وهبوطه من الجنة ، كقوله :

يا من سفكتُ دمائي في الدُّموع له والنفسُ في زفراتٍ قيّدت نَفَسي

عاهدتُم وتناسيتُم عهودَكُـــمْ فالله عاهَدَ قِدْمًا آدمًا فنسي (٤)

---

(١) المصدر السابق ، ١٦

(٢) المصدر نفسه : ٧٢

(٣) المصدر نفسه : ٧٢

(٤) المصدر نفسه ٥٣

وقولـه

ما بالكيا ابليسُ من خلـقنا	تطلبنا بالمـاء والزادِ
امس من الجنّةِ أخرجـتنا	بحيّةٍ من ذلكَ الوادي
واليومَ قد عادتْ الى جنّةٍ	من وجناتٍ ذاتِ إيقادِ
بالأمس في اخراجه والدا	واليومَ في إخراجِ أولادِ
تريدُ ان تُهبطنا ثـانيًا	الى متى أنتَ بمرصـاد
يا شيخُ بسرِّعناه ففي دهرنا	ما جاءَ معشوقٌ بقـواد. [1]

ليست هذه الأمثلة للحصر ، ولكنها لتبيان غرامه بهذه الصور .

اما مدحه فكان بالصفات العامة الشائعة من كرم وعلم وحلم وشجاعة وتقوى وحسن تدبير وعقل ، الصفات التي تعود غيره من الشعراء ان ينسبوها الى ممدوحيهم ، كان يستعملها في أغلب الأحيان ، بعد مقدمة غزلية دون ان يخص واحدا من ممدوحيه بصفات خاصة تدل على حقيقته .

لذلك جاء شعر القاضي الفاضل في الغزل والمدح قائما على خصائص شكلية ، منها :

أ ـ الطبيعة النثرية ، كقوله :

---

(١) المصدر السابق : ٣٢

اذا كان دهري لا يزال محاربي | فيكفيه من عينيه سيف الى قلبي
وان كان لا يكفيه شيء سوى دمي | فيكفي دموع العين مني ودم القلب
وان كان لابد من الحشد للعدا | فحسبي للعذال والرقبا حسبي (١)

سار في هذه الابيات بالتقسيم والترتيب النثرى ، وهذا لا يعتمده الشعر لانه مبني على اللمح .

وكذلــك قولـــه :

يتمادى به لجاج النفور | وبثاني الهوى لجاج الغرور
لا تقل ان اقواله طيبات | ان اقواله شهود الزور
فعلى العقل مسحة من ظلام | وعلى القول مسحة من نور (٢)

ب — التمحل في طلب المعنى ، وهذا يخرج احيانا الى الاحالة :

نظرت اليه نظرة ، فتحيرت | دقائق فكرى في بديع صفاته
فأوحى اليه القلب اني احبه | تأثر ذاك الوهم في وجناته (٣)

راعى في هذه الابيات المعنى ، دون ان يوجد رابطا يربطها .

وقولـــه :

ولقد مررت بدار من أحبته | ليس التي للحب بين ضلوعي
فذكرت سبحي في بحار نداهم | فوقفت اسبح في بحار دموعي (٤)

---

(١) المصدر السابق : ١٨
(٢) المصدر نفسه : ٥٥
(٣) المصدر نفسه : ٢٠
(٤) المصدر نفسه : ٦١

اهتم هنا بالمعنى وبالتلاعب بالألفاظ وتكريرها .

واستمع الى شاعر بلغه نبأ موت صلاح الدين ، أحب الناس اليه
وأفضلهم ، ثم كذب النبأ ، كيف يتلقاه ويصف شعوره عند سماعه بتكذيبه

نعيٌّ زاد فيه الدهر ميمًا ... فأصبح بعد بؤساه نعيما

وما صدق النذيرُ به ، لأني ... رأيتُ الشمسَ تطلع والنجوما [1]

فانه يعنيه التلاعب بالكلمات وحذف حرف او زيادة حرف آخر ، وما هذا تعبير عن شعور عميق .

ج — حل معان مستمدة من ثقافته الاصْلية ، واكثرها أثر فيه بشكل متميز القرآن ، ثم الحماسة بالدرجة الثانية ، ومع انه اضاف الى ثقافته بمرور الزمن ثقافة أخرى ، الا انها لم تتضح كثيرا ، واكثر ما انطبع عنده أثر المتنبي أحيانا ، وأثر الدراسة الفقهية ، ومن بعض تأثراته بالقرآن قوله :

اذا زلزلت بالعاديات منازل ... فلا هجنكم صبحا ، ولا رعنكم ضبحا [2]

استمدها من قوله تعالى في سورة العاديات " والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا " . [3]

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٦
(٢) المصدر نفسه : ١٧٩
(٣) القرآن الكريم : ٨٠٨

وقولـــــه

وأقسم لولا انه طوق عزة ومن موعد الاطواد في الحشر أن تسري

تذهلت لأسرار القيامة اذ بدت لأني رأيت الجود منفجر البحر [(١)]

استمدها من قوله تعالى في سورة الانفطار " اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجرت " . [(٢)]

وقولـــــه

اما رأيت قميص الصبح يا شفقا ألا أتيت عليه بالدم الكذب [(٣)]

استمدها من قوله تعالى في سورة يوسف " وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم انفسكم أمرا " . [(٤)]

ويظهر تأثره بالفقه في قوله :

عذول الهوى يبني بغير أساس ويُفتي بلا نصّ وغير قياس [(٥)]

فهو هنا يستعمل اصطلاحات الفقهاء من نص وقياس وافتاء ، ويظهر أثر المتنبي فيه في قوله :

كما يتزيا بالهوى غير أهله كذا ما تزيا بالهوى غير أهله [(٦)]

---

(١) البيساني ، ٣-٢
(٢) القرآن الكريم ٧٨٧
(٣) المصدر السابق : ١٣٦
(٤) القرآن الكريم ، ٨/ ٢٠٩
(٥) البيساني : ١١٠
(٦) المصدر نفسه : ٨٠

أما أبيات المتنبي فهي :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه (١)

كما حل قصيدتين متتاليتين من الحماسة في قصيدة واحدة مما يدل على انشغال ذهنه بما درسه في حياته ، والقصيدتان اللتان حلهما متقاربتان في موضعهما في كتاب الحماسة ، اما القصيدة الأولى فهي قصيدة قريط بن أنيف التي مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح أبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ومنها لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا (٨) (٢)

وأما الثانية فهي قصيدة الفند الزماني :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم اخوان

وفيها يقول ، وهو من المواضيع التي استعارها الفاضل :

فلما صرح الشر وأمسى وهو عريان

مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان

ومنها وطعن كفم الزق غدا والزق ملآن (٧) (٣)

---

(١) المتنبي - ٢٥٦
(٢) ابو تمام ١ ، ١٤
(٣) المصدر نفسه ، ١٥

وقد مزج القاضي الفاضل بين القصيدتين في قوله :

لا كنتِ يا دهلُ همومي ، ولا ايوكِ ردَهرى ، فهُو شَيْبانُ
دَروا الحنيظاتِ لَهُم لُوثَةٌ لانوا فلا غَرْوَ اذا هانوا [1]

" أخذها من قصيدة قريط " .

وأخذ عن قصيدة الفند ، في قوله :

غمود هم كسوة اسيافهم لا حملت ، والشر عريان
كم وق خمر فيهم ناطق سكران ، بل راجية سكران
فلا تراجعه ، ولا لفظه ولا تزد ، فالزق ملآن [2]

ويلحق بهذا النوع الاقتباس والاشارات التاريخية .

فمن اقتباساته قوله :

ويا من سقى بالخمر من طيب ذكره "الا فاسقني خمرا ، وقل لي : هي الخمر" . [3]

اقتبس الشطر الثاني من هذا البيت ، شطر بيت لابي نواس ، شطره الثاني :

" ولا تسقني سرا اذا امكن الجهر " [4]

---

(١) البيساني ، ١١٤
(٢) المصدر نفسه ، ١١٤
(٣) المصدر نفسه : ٢١٨
(٤) المصدر نفسه : ٢١٨ ، هامش ١

وقولـــه :

أيا صالحَ الآمالِ ، كم قلتَ متنيًا " اذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ " (١)

نصف البيت لأبي نواس ، والشطر الثاني هو " فانت كما نثني وفوق الذى نثني " . (٢)

ومن اشاراته التاريخيه تلميحه الى قصة عثمان بن عفان عندما حوصر

في بيته وقتل ، في قولـــه :

أصبح في دار ضلوعي الأسى قلبي كما أصبح عثمانُ

محصورةً أموالُه مالـــه مع اشتدادِ الحُصرِ إمكا ن

قد أحدقَ الهمّ بأرجائـــهِ جَيشًا فضرابٌ ، وطعّـانُ

فيا زماني إن جرت قطرة من دم قلبي ، فلها شان

في دمّ عثمانَ الذى قد جرى (حوى) جرت من الأحداث ألوان (٣)

ومن اشاراته الى اسماء اشخاص قوله :

ما اكثرَ الاطرابَ بالبُعدِ الذى يُزرى بهمّ كُثيّر من عزّة

طَربُ الكريمِ الى العُلا غيرُ الذى يلتذُّ من طَربِ الوليدِ بعلوةِ (٤)

---

(١) المصدر السابق : ١٨١
(٢)
(٣) البيساني - ١١٣ - ١١٤
(٤) المصدر نفسه ، ١٦٧

أشار في أبياته هذه الى شاعرين ، كثير ، احد شعراء الأمويين ، اشتهر بحبه لعزة ، والبحتري، احد الشعراء العباسيين ، أحب فتاة حلبية تدعى علوة .

د - التلاعب اللفظي والتورية :

فمن توريته قوله :

يا قلب كم خلّفت ثم بثينة   وأعيذ صبرك ان يكون جميلا (١)

ورّى بين الجمال وجميل ، احد الشعراء ، اشتهر بحبه لبثينة .

وقوله :

فيا ليل ان توليهما يدا   تجدني لها ذاكرا شاكرا
وان قلت : تعرفه كافرا   أقل : لا ، ولكن نعم ، فاجرا (٢)

استخدم كلمة كافر على سبيل التورية من الكفر ضد الايمان . والكفر بمعنى الستر ، وفي كلمة كافر تورية ، فالمعنى القريب انها مأخوذة من الفجور وهو الانبعاث في المعاصي ، والثاني انها مأخوذة من فجر الفجر بمعنى أصهره . (٣)

هـ - استعماله الدارج من اللفظ لدرجة العامية . كقوله :

---

(١) المصدر نفسه ، ٩١
(٢) المصدر نفسه ، ٢١٣
(٣) المصدر نفسه ، ٢١٣ هامش (٢)

فحياتي لا أوحش الله منها وعلى الدهر بعد موتي السلام

كان أقرب الى العامية في قوله " لا أوحش الله منها " .

وقولـــــه :

ومنك الى نفسي ، فلمها وأغضب فما لي مابين الصديقين مدخل (١)

استعمل التعبير الدارج " ومنك الى نفسي " .

وقوله وهو أقرب الى العامية :

كأنه الحائط ، لم يستمع شكوى ، وللحائط آذان (٢)

و — اعتماده الصنعة القائمة على العد كقصيدة مدح بها العزيز عثمان عد فيها صفات مختلفة بأربع ، ثلاثا وأربعين مرة ، بدأ القسم العددى منها بقولــــه :

فيهن من شَبَه الغزلان أربعةٌ نَفْرةٌ ، وطيبٌ وأحداقٌ ، وأجيادُ

وقد بُكت لضنى العُشّاق أربعةٌ طِبٌّ ، وفُرُشٌ ، وسُمّارٌ ، وعوّادُ

همي بهم زائدٌ زادته أَربعـةٌ يضني ، ويعمي ، ويَستشري ، ويزدادُ

وكيف يُبقي على العينين اربعة رعدًا ودمعٌ ، واطراقٌ ، واسهادُ

هيهات يصدق منك الظنّ أَربعةٌ عهدٌ ، وودٌ ، وأقوالٌ ، وميعادُ

---

(١) المصدر نفسه ، ٨١

(٢) المصدر نفسه ، ١١٤

ويقول فيها: وللعزيز من الملوك اربعة ... قلبٌ ونطقٌ ، وأخلاقٌ ، واحماد
تجمعت في مديحي فيه اربعة ... سَبك ، ونَظم ، وإنشاءٌ ، وإنشادُ (١)

وهكذا ، الى آخر القصيدة .

ز — اعتناؤه بالجناس والطباق ومراعاة النظير .

فمن جناساته قوله :

من أين انت ، ومن يد ربك اين انا ... الجد خلقي ، ومن اخلاقك العبثُ
ما جئتِ مبعوثةً بل جئتِ باعثةً ... همي ، ولا خاطرٌ في الهم منبعث (٢)

حيث حاول ان يجانس جناس اشتقاق بين مبعوثة وباعثه ومنبعث وكلمة العبث .

وقولــــه :

لم يطمع الليل مني ان أرق له ... ينسى جناياته الناسي على الناس

حيث جانس بين كلمتي ناسي ، اسم الفاعل ، والناس جناسا تاما .

وقولــــه :

فما لعين عن رياض رضا ... ولا لبرح عن فؤاد براح
لا مرحا صرتُ ولا مشتهى ... أفقدني فقد الملاح المراح

حيث جانس بين كلمة برح بمعنى الشدة ، وبراح بمعنى مغادرة المكان . كما جانس في البيت التالي جناسا ناقصا بين الملاح والمراح .

---

(١) المصدر نفسه ، ١٩٠
(٢) المصدر نفسه ، ٢١

ومن قولـه في مراعاة النظـير :

في خده فخ لعطفة صدغه   والخال حبته وقلبي الطائر [(١)]

راعي في ذكره للفخ ان يذكر الحبة والطائر

ومن مطابقاته قولـه :

يلام لما لا يستطيع ويعذر   ويسهب فيه القول او فيقصر

وأفعالكم تنهاه لو كان ينتهي   وما غابت الآراء لو كان يحضر

لساني بأمرى ، وهو مني ومنكم   عن البث ينهي او فبالكلم يوقر

فأما جفوني فهي بين يد يكم   ضميري بهما يبد و وسرّي يظهر [(٢)]

طابق بين يسهب ويقصر وغاب ويحضر ، وينهى ويؤمر ، كما استعمل مجموعة من الكلمات المتطابقة في الابيات التالـية بقوله :

يا طرف ، مالك ، ساهد في راقد   يا قلبه مالك راغب في زاهد

من يشتري عمرى الرخيص جميعه   من وصلك الغالي بيوم واحد [(٣)]

هي ، ساهد وراقد ، وراغب وزاهد ، ورخيص وغال .

---

(١) المصدر نفسه ، ٤٦

(٢) المصدر نفسه ، ٣٦

(٣) المصدر نفسه ، ٣٣

ح — بالرغم من ميله الى التقليد ، نجد ان موجة التوشيح قد أعدته .

ولا بد ان يكون قد تأثر بتلميذه ابن سناء الملك ، أحد الذين أولعوا في الموشح من المشرقيين ، وألف فيه " دار الطرازة " الذى حاول فيه ان يحدد قواعد الموشح ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه (١) ، ولعل كتابه هذا أول ما ألف في هذا الباب فقد ذكر فيه ابن سناء الملك " ولما كانت الموشحات بهذه المثابه ، ولها في سوق الادب هذه القيمة ، ولم أر احدا صنف في اصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى وسبيلا يقتفى ، جمعت في هذه الاوراق ما لا بد لمن يعانيها ويعنى بها من معرفة ولا غناء به عن تفصيله وجملته ، ليكون للمنتهي تذكرة وللمبتدى تبصرة " . (٢) وقد جعل قسما من هذا الكتاب لمجموعة من الموشحات نظمها بنفسه ، لا بد وأن يكون القاضي الفاضل قد اطلع عليها لما كان بينهما من صداقة وتبادل آراء في النقد .

من موشحاته :

دع اللوم يا عاذلي	فما انت بالعاذل
ولا تكثرنّ المَلام	وأقصر بهذا الكلام
على الصبِّ مثلُ الكِلام	ولو قمْتَ في كلّ عام
تلوم الى القابل	فما انا بالقابل (٣)

---

(١) ابن سناء الملك ، ١٣

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤

(٣) المصدر نفسه ، ٧٦

وهي غير تامة ، لذلك لا تستطيع ان تحكم عليها .

وموشحة أخرى يقول فيها :

مَنْ لي به بدرَ كِلَّة	قَدْ حازَ قلبي كُلّه
فهل تُرى يتعزّز	والعزّ في الحبّ ذِلَّه

...

رضيتُ به مُصابي	ثما على الناس منّي
وراحتي في عذابي	فلو مضى ذاك عَنّي
لاشتاق قلبي لما بي	فهلْ علمتُم بأنّني
أمسيتُ أحملُ مُقلة	من المنام مُقيلة
لو زارها الطيف أعوز	نومٌ يكونُ محلّه

....

مزجتُ منها كئوسًا	تجلو الدّجى بشعاع ٍ
اذا تجلّت شموسًا	وتامّ للهو داعِ
فالروض يُجلى عروسًا	قد سُوّرت بشجاع
اشجارها مثل كِلّه	فالروضُ مطرحُ بِذَلّه
له من النهر قرّوز	فانظر الى صنعة الله [1]

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٨٣ — ٢٨٤

كون بعض مقطوعاته من اربعة ابيات وبعضها الآخر من خمسة .

الا انه لم يستعمل الخرجة العامية في هذا الموشح .

تصح للقاضي بعض المحاولات في التجديد بالمعاني . وفي السياق

العام ، شعره ذو نسق جميل ليس فيه كثير من الحديث عن ذاته الا في النادر

وله قطعة واحدة يشكو فيها من خدمة السلاطين بقولـــه :

ما خادمُ السلطانِ الا عرضَةٌ	من نَيْضِ وابلِهِ ولفظِ وَبالِهِ
عَجِلَتْ عقوبَةُ كلّ جارحةٍ به	من قبلِ يوم مُوقَفٍ لِنَكالــه
تجد فجنانُه بجمودِه ، ورُواؤه	بخمودِه ولحاظُه بِكلالِــه
والهمّ يطرُقُه لدى غُدواتِهِ	والهمّ يُصليه لدى آصالِــه
يُعزى الى الترويق في إكثارِه	ويُزَنّ بالتكذيب في إقلالِــه
من لي برزقٍ ليس من أرزاقــه	من لي بشغل ليس من اشغاله
ولقد شقيتُ بخونِهِ وحرامِهِ	نمتى ألذّ بأمنِهِ وحلالِــه
مترجيا للعيش في إعــزازِه	متخوفا للموت في إذلالــه (١)

وصل بتذمره من خدمة السـلطان ان وصف خادم السـلطان بالآلـــة

لاصابته بجمود العقل ، وعدم التفكير الحر لانّه يفكر بعقل السـلطان ، واصابة بهجته

بالخمود لكثرة خونه من الوقوع في الاخطاء ، ونظره بالكلال ، لكثرة ما يلحظ وجه السلطان ،

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٢٨

لمعرفة ما يرضيه ويغضبه ، ومثل هذا القول مستغرب صدوره عن القاضي الفاضل لانه في ثنايا قصيدة مدحية .

وأخرى يشكو فيها من معاملة الاصدقاء ويقول :

وأما سوء حظي من صديقي ... نذاك من الرسوم المستقرّة

وخِلٍ كان مُودعَ كُلّ سِرّ ... نكثتُ أصونُهُ وأصونُ سرّه

حفظتُ عهودَه ، وأضاع عَهْدي ... ولم يكُ لي بِطُرُقِ الغدرِ خِبرَه

وكم آمنْتُه خدعي وَمكري ... ولم آمن خديعَتَه وَمكره

بذلت له على العلات خيري ... ولكن ما كفاني الله شرّه (١)

جارى القاضي الفاضل في شعره روح عصره إلى حد ما في اهتمامه بالصنعة واعتماده المحسّنات اللفظية والمعنوية ، اثبت انه في النثر أقدر منه في الشعر ، ومع هذا فقد أعجب بعض الادباء بشعره واستعانوا ببعض الصور التي قدمها للدلالة على بلاغته ومقدرته الشعرية .

يذكر العباسي في حديثه عن المخالص قوله " ومن المخالص البديعة قول القاضي الفاضل ، من قصيدة يمدح بها الخليفة الفاطمي في ذلك العصر مطلعها :

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٣٠

ترى لحنيني او حنين الحمائم	جرت نحكت د معي دموع الغمائم

وبعد ان يورد المقدمة يقول وما احلى قوله بعده ، وينقل ما قاله الفاضل حتى يصل الى المخلص الذى يقول فيه :

فان فؤادي بعدكم قد فطمته	عن الشعر الا مدحه لابن فاطم [1]

وأورد له أبياتا أخرى أُتنى على مطالعه فيها بقوله " ولنذكر هنا من مطالع المتأخرين ما يزرى بمطالع البدور ، ويبهر نظمه محاسن الدر المنثور " .

ثم يقول ، ومن ذلك قول القاضي الفاضل :

زار الصباح فكيف حالك يا دجى	قم فاستتر بفرعه او فالنجا

وقوله ايضا يخاطب العاذل :

أخرج حديثك من سمعي فما دخلا	لا ترم بالقول سهما ربما قتلا

يقول : وما ألطف ما قال بعده :

ولا يخف على قلبي حديثك لي	لا والذى خلق الانسان والجبلا

يقول ايضا ، وقوله :

سمعتك والقلب لم يسمع	فكم ذا تقول وكم لا يعي
يقول وما عنده انني	بغير فؤاد ولا أضلع
اما مع هذا الفتى قلبه	فقلت نعم يا فتى ما معي [2]

---

(١) العباس ج ٤ ص ٢٥٨ — ٢٥٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٥

ويورد له في مناسبة أخرى اشعارا مستشهدا على سبق القاضي الفاضل بطرق موضوعها فيقول " ولنذكر من أخذ المتأخرين بعضهم عن بعض ما يحلو في الأذواق وتتحلى به الأوراق .

من ذلك قول القاضي الفاضل في مليح معذر

وكنتَ وكنا والزمان مساعد ... فصرتَ وصرنا وهو غيرُ مساعد

وزاحمني في ورد ريقك شارب ... ونفسي تأبى شركها في الموارد (١)

ويذكر ابن تغربردى ان علماء البديع استشهدوا بكثير من شعره ، وقال عنه " وفضل القاضي الفاضل وبلاغته وفصاحته اشهر من ان يذكر " (٢)

غير اننا بالرغم من بعض هذه الآراء القليلة ، لا نستطيع أن نضعه في مرتبة المجيدين من الشعراء .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٢

(٢) ابن تغربردى ج ٦ ص ١٥٧

خاتمـــــة

هذه هي الصورة التي تمكنت من استنتاجها وتقديمها عن القاضي الفاضل . ولا يمكنني ان أقول انها الصورة النهائية له ، لأن ما بين يدى من روايات قليلة لا تكفي لاصدار حكم او اعطاء صورة لشخص عاش سبعين عاما واجه خلالها ظروفا مختلفة كيّف نفســه وشخصيته بطرق مختلفة بموجبها . لذلك اكتفي بقولي انني بذلت جهدى لابراز الصورة الأقرب الى حقيقته ، آملة الا اكون اجحفته حقه .

قسمت بحثي الى اربعة موضوعات ، بدأتها بمقدمة عن العصر وأثره في حياة القاضي الفاضل وتكوين شخصيته وتوجيهها في الاتجاه الذى سارت عليـه ثم انتقـلت للتحدث عن سيرته فبدأت بالتعريف به ، وبأسرته التي لم يشر اليها في أدبه معتمدة على الروايات القليلـة التي أوردتها بعض المصادر عنه . ثم بحثت في سـيرته بناء على ثلاثة مراحل ، أولها في العهد الفاطمي حيث كان يكافح للحصول على منزلة مرموقة في الدولة ، معتمدا على فنه النثرى والشعرى بالأغلب ، وثانيها في عهد صلاح الدين عندما وصل ذروة مجـده معتمدا على تدبيره وادارته وفنه ، فلعب دورا كبيرا في تاريخ البلاد من حيث دعاءه الدائم للوحدة وجهاد الفرنج ، ووقوفه الى جانب صلاح الدين وتشجيعه ونصحه الدائمين له ، وتيقظه في مراقبة الأحداث الداخلية من انقلابات واضطرابات

والقضاء على بعضها .

اظهر في هذه الفترة مقدرة سياسية ناقض نفسه فيها فيما بعد دون ان يشعر ، فوافق صلاح الدين على تقسيم البلاد التي طالما دعا الى توحيدها ، بين ابنائه . وشاهد جزءا من نتيجة هذا الخطأ المشترك بينه وبين صلاح الدين بعد وفاة الاخير وظهور الخلاف بين ابنائه وتقسم مملكته وانتقال الملك الى العادل ابي بكر ، اخي صلاح الدين ، قبل وفاته بيوم مما سبب له صدمة عنيفة لم يتمكن من تحملها .

وحاولت ان أرسم شخصيته كما لمحتها من بعض كتاباته ، وما ألقته المصادر من ضوء عليها اثناء الحديث عنه ، وأن اتتبع أثرها الذى ظهر في مظاهر عديدة من بيئته . ثم خصصت فصلين لنثره وشعره ، بدأته بنثره لانه القسم الاهم فقدمت صورة موجزة لحال النثر في المشرق الاسلامي ومصر منذ ظهور العناصر الفنية حتى عصره ، ومدى تأثره به في نثره الذى وصلنا من رسائل ديوانية واخوانية ، حيث اعتمد البديع في كتابته واستعمل عناصر خاصة جعلت المؤرخين يطلقون عليها اسم الطريقة الفاضلية . كما قارنت كتابته مع كتابة بعض معاصريه لنتمكن من اصدار حكم عليه من حيث الاسلوب . وأنهيت البحث في الحديث عن شعره حيث وجه جل اهتمامه بالمظهر الذى اضاع في سبيله قيمة شعره وعمله الشعرى الى حد ما .

لائحة المصادر والمراجع

(١) المصـــادر [1]

١ـ المخطـوطة

أ ـ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، نسخ محيي الدين عبدالله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ ، ١٢٩٣ م)
مكتبة دار الكتب المصرية
مخطوط مصور رقم ٢٢٤ أدب

ب ـ كتاب فيه من كلام الفاضل عبد الرحيم البيساني ، تم نسخه عام ٦٨٣ هـ
نسخته محفوظة بمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت .

ج ـ الفاضل من كلام الفاضل
جمع جمال الدين ابن نباته (ت ٧٦٨ هـ ، ١٣٦٦ م)
دار الكتب المصرية
مخطوط مصور رقم ٢٨٨٢ أدب . مصور عن نسخة في المتحف البريطاني

د ـ من ترسل القاضي الفاضل
نسخ موفق الدين ابن الديباجي
مخطوط مصور ، مكتبة بشير آغا أيوب
رقم المخطوط ١٢٦

---

(١) نقتصر في لائحة المصادر هذه على كتب القاضي الفاضل ومجموعات رسائله . اما المؤلفات التي تمدنا بمعلومات عنه فقد أوردناها في لائحة المراجع .

٢- المطبوعة

- البيساني ، ديوان القاضي الفاضل لعبد الرحيم بن علي البيساني
(ت ٥٩٦ هـ ، ١١٩٩م)
تحقيق الدكتور احمد احمد بدوى
دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦١م ، (١٣٨١ هـ)

٣- مجموعات رسائل القاضي الفاضل في المؤلفات التالية

أ - ابو شامة ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لعبد الرحمن بن
اسماعيل (أبي شامة) .
لشهاب الدين (ت ٦٦٥ هـ ، ١٢٦٧ م)
مطبعة وادى النيل بالقاهرة ،١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠-١٨٧١م)

ب - القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا لأبي العباس احمد
بن علي القلقشندى
(ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨م)
المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ (١٩١٢م)

ج - المقريزى ، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر
الخطط والآثار المقريزية .
لتقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤٠م)
المليجي بالقاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ (١٩٠٦ - ١٩٠٨م)
دار الطباعة المصرية ، ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣م)

المراجـــع

المراجع القديمة

١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت ٦١٨ هـ - ١٢٧٠ م)

المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م)

٢- ابن الاثير ، الوشي المرقوم في حل المنظوم لضياء الدين أبي الفتح ابن الاثـــير .

(ت ٦٣٧ هـ ، ١٢٣٩ م)

مطبعة ثمرات الفنون ، ١٢٩٨ هـ . (١٨٨٠ م)

٣- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ لعز الدين بن الاثـــير

(ت ٦٣٠ هـ ، ١٢٣٢ م)

القاهرة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)

٤- ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور لأبي البركات بن احمد بن أياس

(ت ٩٣٠ هـ - ١٥٢٣ م)

مطبعة التقـدم ، القاهرة ١٢١٩ هـ - ١٩٠١ م

٥ — ابن تغريبردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـــرة
لجمال الدين أبي المحاسن بن تغريبردى
(ت ٨٧٤ هـ ، ١٤٦٩م)
مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٥ هـ ، (١٩٣٦م)

٦ــ ابن جبير ، رحلة ابن جبير لمحمد بن احمد بن جبير
(ت ٦١٤ هـ ، ١٢١٧م)
بريل ، ليدن ١٩٠٧م (١٣٢٥ هـ)

٧ــ ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ
والخبر في أيام العرب والعجم والبربر لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون
المطبعة الأزهرية ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠م)

٨ــ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لشمس الدين ابن خلكان
(ت ٦٨١ هـ ، ١٢٨١م)
بولاق ١٢٩٩ هـ (١٨٨١م)

٩ــ ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات لأبي القاسم
هبة الله ابن سناء الملك .
(ت ٦٠٨ هـ ، ١٢١١م)
دمشق ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)

١٠ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة
لعز الدين محمد ابن شداد
(ت ٦٨٤ هـ ، ١٢٨٥ م)

مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٦م (١٣٧٥ هـ)

١١ـ ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، لعلي بن منجب الصيرفي
(ت ٥٤٢ هـ ، ١١٤٧م)

القاهرة ، مطبعة الواعظ ، ١٩٠٥م (١٣٢٣ هـ)

١٢ـ ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ لعماد الدين ابي الفدا ابن كثير
(ت ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٢م)

مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م)

١٣ـ ابن ميسر ، اخبار مصر ، لمحمد بن علي بن يوسف بن ميسر
(ت ٥٥٣ هـ ، ١١٥٨م)

مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩١٩م (١٣٣٨ هـ).

١٤ـ ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، لجمال الدين محمد بن سالم
ابن واصـــل .
(ت ٦٩٧ هـ ، ١٢٩٨م)

مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧م (١٣٧٢ ، ١٣٧٦ هـ)

١٥- ابو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، لعبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين

(ت ٦٦٥ هـ ، ١٢٦٧م)

مطبعة وادى النيل ،القاهرة ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠-١٨٧١م) .

١٦- ابو الفدا ، المختصر في تاريخ البشر ، لعماد الدين اسماعيل بن علي

(ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١م)

المطبعة الحسينيه ،القاهرة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م)

١٧- الأزدى ، بدائع البدائة (هامش شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص) لعلي بن ظافر الأزدى .

(ت ٦٢٣ هـ ، ١٢٢٩م)

المطبعة البهية ، القاهرة ١٣١٦ هـ ، ١٨٩٨ م

١٨- الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) لعماد الدين الاصفهاني .

(ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١ م)

نشر الدكتور احمد امين شوقي ضيف ، احسان عباس

١٩- الاصفهاني ، الفيح القسي في الفتح القدسي ،لعماد الدين الاصفهاني

(ت ٥٩٧ هـ ، ١٢٠١م)

المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤م)

٢٠ـ الثعالبي ، يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر ، لأبي منصور
عبد الملك بن محمد الثعالبي .
(ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٣٧ م)
المطبعة الحنفية ، دمشق ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م)

٢١ـ الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي
(ت ١٠٨٩ هـ ، ١٦٦١ م)
مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ (١٩٣١ ـ ١٩٣٢ م)

٢٢ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، لأبي المظفر يوسف بن قزأوغلو
(ت ٦٥٤ هـ ، ١٢٥٦ م)
حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية

٢٣ـ السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي
(ت ٧٧١ هـ ، ١٣٦٩ م)
المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م)

٢٤ـ السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي
(ت ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م)
القاهرة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)

٢٥ـ الصفدي ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، لصلاح الدين
بن أيبك الصفدي .
المطبعة الأزهرية المصرية ، ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م)

٢٦ـ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي
(ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٢ م)
تحقيق هـ ريتر (و) س ديدرينغ
مطابع مختلفة ، ١٩٣١ ـ ١٩٥٣ م (١٣٥٠ ـ ١٣٧٣ هـ)

٢٧ـ طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لأحمد بن مصطفى
(ت ٩٦٢ هـ ، ١٥٥٤ م)
حيدر آباد ١٣٢٨ ـ ١٣٥٦ هـ (١٩١٠ ـ ١٩٣٧ م)

٢٨ـ العباسي ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، لعبد الرحيم
بن عبد الرحمن العباسي .
(ت ٩٦٣ هـ ، ١٥٥٥ م)
المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٤٧ م (١٣٦٧ هـ)

٢٩ـ الغزولي ، مطالع البدور في منازل السرور ، لعلاء الدين علي ابن
ابن عبد الله البهائي الغزولي . (ت ؟)
مطبعة ادارة الوطن ، ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م)

٣٠– القرآن الكريم

مطبعة عبد الله الملاح ، دمشق ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠ م)

٣١– القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة ، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي .

(ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م)

مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ م (١٣٧٠ هـ)

٣٢– القلقشندى ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، لابي العباس احمد بن علي القلقشندى .

(ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م)

المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ (١٩١٢م)

٣٣– الكتبي ، فوات الوفيات ، لمحمد بن شاكر احمد الكتبي .

(ت ٧٦٤ هـ ، ١٣٦٢م)

مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١م (١٣٧١ هـ)

٣٤– المقريزى ، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين احمد بن علي المقريزى .

المليجي ، القاهرة ١٣٢٤ – ١٣٢٦هـ (١٩٠٦ – ١٩٠٨ م)

دار الطباعة المصرية ، ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣م)

٣٥- المقريزى ، السلوك لمعرفة الملوك ، لتقي الدين احمد بن علي المقريزى .

(ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤٠ م)

القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م

(١٣٥٣ ، ١٣٦١ هـ)

٣٦- النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، لأبي المفاخر عبد القادر

بن محمد النعيمي .

(ت ٩٢٠ هـ ، ١٥١٢م)

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٨ - ١٩٥١ م (١٣٦٨-١٣٧١ هـ)

٣٧- النويرى ، نهاية الأرب في فنون العرب ، لأبي العباس احمد بن

عبد الوهاب النويرى .

(٧٧١ هـ ، ١٣٦٩م)

دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٥٥ (١٣٤٢ - ١٣٧٥ هـ)

٣٨- ياقوت ، معجم الأدباء ، لشهاب الدين ياقوت الرومي الحموى .

(ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م)

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ م

(١٣٥٥ ، ١٣٥٧ هـ)

٣٩— اليمني ، النكت العصرية في اخبار الأمراء المصرية ، لأبي محمد
عمارة بن علي اليمني .
(ت ٥٦٩ هـ — ١١٧٣م)
باريس ، لبورد ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ)

المراجع الحديثة

١— بدوى ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، لأحمد بدوى
مكتبة النهضة ، مصر ، سنة ؟

٢— حسين ، أدب مصر الفاطمية ، لمحمد كامل حسين .
القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠

٣— الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، لجمال الدين الشيال
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ م ١٣٧٧ هـ

٤— ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، لشوقي ضيف
مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ م

٥— مبارك ، النثر الفني ، لزكي مبارك
مطبعة دار الكتب ، ١٩٣٤ م

٦— المقدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، لأنيس المقدسي
منشورات الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، سنة